March 28, 2021 [Vol. 32(1)]
P-ISSN: 1680-8738; E-ISSN: 2663-547X

مجلة كلية التربية للبنات
مجلة فصلية علمية محكمة للعلوم الانسانية والاجتماعية تصدرها كلية التربية للبنات-
جامعة بغداد-العراق
Journal of the College of Education for Women
A Refereed Scientific Quarterly Journal for Human and Social Sciences Issued by the College of Education for Women-University of Baghdad-IRAQ

Received: January 8, 2020
تاريخ الإستلام: ٢٠٢٠/١/٨
Accepted: February 14, 2021
تاريخ القبول: ٢٠٢١/٢/١٤
Published: March 28, 2021
تاريخ النشر الألكتروني: ٢٠٢١/٣/٢٨
DOI: http://doi.org/ 10.36231/coedw.v32i1.1457

Argumentative Communication in *Rawdat al-Muhebben wa Nozhatt al-Mushtaqeen*'s Book by Ibn Al-Qayyem: The Foundations and Mechanisms of its Functioning

Maryam Ibrahim Ali Hamed Ghabban
Department of General Courses/Faculty of Arts & Humanities-University of King Abdulaziz-Jeddah
maaghabban@kau.edu.sa

Abstract

This research seeks to unravel the components of the argumentative discourse in the Book of '*Rawdat al-Muhebbeen wa Nozhatt al-Mushtaqeen*' - The Garden of Lovers and the Promenade of Longing People – by Ibn Al-Qayyem Al-Jawziyah. This is because this book has a moderate discourse with a sound Islamic thought that is characterized by its sustainability, popularity, realism, and interaction with the successive developments of the new age. This reflects the intellectual maturity the composing process has reached in the philosophy of love and its educational bases in every place and time. To explore the componets, properties, and the working mechanisms of an argumentative discourse in Ibn Qayyem's book, the present work has been conducted using a pragmatic closeness approach among the three communication polars: (sender, receiver, and message). Through the third pole, the researcher attempts to interpret the text internally, shedding light on its philosophical and aesthetic semantic significance. Such a type of analysis helps reveal the logical argument that conforms to the spirit of the age during which the book appeared. This can be clarified by exploring the sender's employed emotional arguments that are connected to the recipient and his persuasive realistic experiences. All the above discussion reveals the secrets of a discourse and its hidden points, establishes the values of a dialogue and persuasion, accepts the differences, and reconciles between the different opinions. Accordingly, an argumentative entery has been chosen as it represents a communicative act that is based on a set of interactive rules orienting interlocuters' intentions.

***Keywords*:** Argumentation, Ibn Al-Qayyem, '*Rawdat al-Muhebbeen*'communication

التواصل الحجاجي في "روضة المحبين ونزهة المشتاقين" لابن القيم :المقومات وآليات الاشتغال

مريم إبراهيم علي غبان
قسم المواد العامة/ كلية الآداب والعلوم الإنسانية- جامعة الملك عبد العزيز
maaghabban@kau.edu.sa

المستخلص

يسعى هذا البحث إلى الكشف عن مقومات الخطاب الحجاجي في *كتاب (روضة المحبين ونزهة المشتاقين)*، لابن القيم الجوزية، بوصفه خطابًا معتدلاً، يحمل فكرًا إسلاميًا رصينًا، يتسم بالاستمرارية، والشهرة، والواقعية، والقدرة على التفاعل مع مستجدات العصور المتلاحقة، وهذا مما يعكس النضج الفكري، الذي وصل إليه التأليف في فلسفة الحب، وما يتمتع به من أسس تربوية صالحة لكل زمان ومكان. وللكشف عن مكونات الخطاب الحجاجي، وخصائصه، وآليات اشتغاله في كتاب ابن القيم، تقترح الدراسة مقاربة تداولية، تستهدف أقطاب التواصل (المرسل، و المستقبل، و الرسالة)، ومن خلال القطب الثالث، تُقدم الدراسة محاولة تأويل محايث؛ لتحاور النص السردي من داخله، وتستنطق دلالاته الفلسفية والجمالية؛ لتكشف عن جدل منطقي، يتوافق مع روح العصر الذي ظهر فيه الكتاب، يتضح ذلك عن طريق الكشف عما وظفه المرسِل من حجج عاطفية تتصل بالسمات الأخلاقية، للمرسل، وبما يحمله من تجارب ذات سمة واقعية، لها دورها في إقناع المتلقي، وجميع ما سبق يستهدف الكشف عن أسرار الخطاب واستجلاء خباياه، التي ترسخ قيم الحوار والإقناع وتقبل الاختلاف بإيراد الرأي والرأي المخالف، ومحاولة التوفيق بينهما؛ ولذلك اخترنا المدخل الحجاجي، كونه فعلا تواصليًا، ينهض على جملة من القواعد التفاعلية، التي توجه مقاصد المتخاطبين.

***الكلمات المفتاحية*:** ابن القيم، التواصل، الحجاج، روضة المحبين

March 28, 2021 [Vol. 32(1)]
P-ISSN: 1680-8738; E-ISSN: 2663-547X

١ـ المقدمة

تحتفظ الذاكرة العربية بتراث أدبي، له فلسفة أخلاق متكاملة، تتوافق مع مبادئ الإسلام، فهو أدب حافل بالأحداث، والأخبار، والنوادر المتنوعة عن الحياة في العصور الإسلامية المتتالية، ويتسم الأدب الإسلامي شعرًا ونثرًا بثراء معرفي وفكري يؤهل لدراسته وتحليله، فضلا عن ذلك فإن هذا الأدب، نشأ في ظل ظروف وتحديات كثيرة أحاطت بالمسلمين في تلك الفترة، فجاء الخطاب الأدبي محاورًا ومسائلًا لها، هذه المعطيات كفيلة بأن تجذبنا نحو هذا الإبداع، فهو يستحق الاهتمام؛ لأنه يشكل جزءًا مهمًا من تراثنا العربي، الذي يتسم بالبراعة البيانية، وكان ذلك شأن كتاب (روضة المحبين ونزهة المشتاقين) لابن القيم.

وانطلاقًا من هذه الأهمية، قدمت الدراسة مقاربة نقدية، تتناول الكتاب، من زوايا أسلوبية خاصة، تكشف عن القوة الحجاجية، والقدرة الإقناعية، بوصفها مدخلًا من مداخل جماليات النص الأدبي، وللكشف عن مكونات الخطاب الحجاجي، القائم على البرهان والأدلة الداعمة للعرض المنطقي، والتواصل العاطفي الفعّال، تم تسليط الضوء على مظاهر الحجاج، وعوامل تماسكه؛ لاكتشاف أبرز وظائفه الملاءمة لمقتضى الحال.

٢ـ الجانب النظري

٢ـ١ الحجاج ظاهرة تواصلية: المرتكزات النظرية للحجاج

يعد القرن الخامس قبل الميلاد مهد النظرية الحجاجية وموطنها، وذلك بفضل ولادة المنطق الصوري، والجدل، والبلاغة الإقناعية، أو الخطابية، فقد كان الخطاب بأساليبه، ومقوماته البلاغية وسيلة للتواصل والإقناع والإمتاع، وقد أقام صرح هذه البلاغة أرسطو، ثم أعاد توظيفها الحجاجيون المعاصرون، وبذلك تكون نظرية الحجاج قد بدأت مع أفلاطون، ثم نضجت مع أرسطو، وانتهت عند شايم بيرلمان وألبرت تيتكا وأسكومبير وديكرو وغيرهم من الباحثين المعاصرين (لدية، ٢٠١٥، ص ١٤).

لقد أضحت نظرية الحجاج من أهم المداخل، التي يمكن التوسل بها؛ لاستنطاق النصوص الأدبية، وكشف جمالياتها، ومن ثم الخروج منها بخلاصات متعددة، تتخذ من الإقناع والاقتناع غاية لها. وموضوع هذه النظرية، كما صرح بها شايم بيرلمان وتيتكا هو دراسة تقنيات الخطاب، التي من شأنها تأدية المعنى بوضوح وإفهام، يزيد من درجة التسليم والإذعان؛ فالحجاج "نظرية بلاغية تُعنى بالتقنيات الخطابية والفعاليات الحجاجية اللغوية والاجتماعية والعقلانية، التي تهدف إلى الإقناع والتأثير، بوصفها حججًا موجهة للدفاع عن طرح معين وتبنيه أو دحضه" لدية (٢٠١٥، ص١٤).

٢ـ٢ الدلالة اللغوية والاصطلاحية للحجاج

الربط بين الحجاج والتواصل أمر بديهي؛ لأنه يتحقق بين طرفين عبر التخاطب والحوار، ولأن الحجاج يتقصّد استمالة المتلقين، وعلى هذا الأساس فمن الطبيعي أن يُبنى الحجاج على التواصل بين طرفين؛ لأنه يتضمن التفاعل والاختلاف في الرأي.

والحجاج لغة من (حاج) أو (حاجج) بفكّ الإدغام، وهو على وزن (فاعَل) أي نازع بالحجة، والحجة: الدليل والبرهان، وبهذا المعنى ينصرف مفهوم الحجاج في العربية إلى النزاع، والخصام، والمجادلة، بوساطة الأدلة والبراهين، وهذا ما نصّ عليه ابن منظور في الربط بين الحجاج والجدل؛ فالجدل عنده هو "مقابلة الحجة بالحجة" (ابن منظور،٢٠٠٣)، ولرفع اللبس بين لفظي (الحجة والحِجاج) قارن الرقبي (٢٠١٨، ص١٥) بينهما بقوله: "الحجة في القصد والظفر والغلبة على الخصم، في حين الحجاج على أساس التخاطب بين المتكلم والمستمع، اللذين يفترض فيهما أن يتحاجا في أمر يستوجب دليلًا أو حجة له أو عليه".

وأما الاحتجاج؛ فهو عند الرقبي (٢٠١٨، ص ١٥) "إيراد الحجج المثبتة لدعوى المتكلم"، ويكون تخيليًا أو إيهاميًا أو عقليًا، وهناك من يُفضل الاصطلاح على (التحاجج) وهو من (تحاجّ) بالإدغام، أو(تحاجج) بفك الإدغام، وكلها ألفاظ وردت في معاجم العربية مرادفة للفظ الجدل أو تسد مسده، ومع أن وزن (محاججة) يدل على المفاعلة، إلا أن المفهوم الحديث للحجاج أوسع وأكثر إيجابية من الجدل؛ لأن غرضه إحداث التأثير اللازم للإقناع، وليس الاكتفاء برد الحجة، ولذلك يمكن أن يُضاف إليه معنى القصد أو الغلبة والظفر، فالحجُ: القصْد، والقدوم، والكف، والغلبة بالحجة (الفيروز آبادي، ١٩٩٥)، هذا المنحى للحجاج يتطلب الدفاع عن الرأي وتقديم الدليل؛ لأن الحجاج يرتبط بالخطاب، ومن ثم هو استدلالي "يوظفه المتكلم بغية إفادة المستمع وإقناعه، خصوصًا في الأدوار الخطابية للمتكلم والمستمع، الذي تدل عليه في الحجة أدوات لغوية خاصة" (كروم، ٢٠٠٠م، ص ١٦).

وبهذا المعنى يكون الحجاج امتدادًا وتطويرًا لنظرية اللغة عند ديكرو، الذي يعتبر الحجاج فعلًا لغويًا خاصًا؛ فالحجة عنده عنصر استدلالي يتضمن كل ما يصطبغ بصبغة حجاجية عن طريق اللفظ أو القول أو الخطاب، ومن هذا المنطلق ربط الرقبي (٢٠١٨، ص١٦) المحجة التي تعني الطريق والمسلك، بدلالة الحجاج في عملية التحاج، التي تتوسل أساليب إقناعية، وفي علم اللغة النصي عُرّف الحجاج عند (أندرسين) على أنه "طريقة لاستخدام التحليل العقلي والدعاوى المنطقية، وغرضها حل المنازعات والصراعات؛ لاتخاذ قرارات محكمة، والتأثير في وجهات النظر والسلوك" (العبد،٢٠١٠، ص ٥)، هذا التعريف يوقفنا على حقيقة أن الحجاج طريقة في التحليل والتعليل، يُستخدم فيها المنطق للتأثير في الآخرين، وهذه خلاصة تعريف الحجاج عند كل من أندرسين ودوفر، نقله (دوبوجراند، ١٩٩٨، ص ٤١٥)، فالحجاج بمعنى آخر هو إجراء بوساطته يحاول شخص أو جماعة، حمل مستمع ما على تبني موقفًا معينًا، عن طريق اللجوء إلى عروض، أو إثباتات (حجج)، تهدف إلى إظهار صحته أو صوابه، وبناء على ذلك ذكر السرتي (٢٠١٣، ص٢١) ثلاث خصائص رئيسة للحجاج، نقلها عن بيير أوليرون:

١- **الحجاج ظاهرة اجتماعية**، تستدعي مشاركة عدد من الأشخاص.

٢- **الحجاج ممارسة** لها معالم محددة تؤثر في الآخرين.

March 28, 2021 [Vol. 32(1)]
P-ISSN: 1680-8738; E-ISSN: 2663-547X

٣- **الحجاج إجراء** يتألف من عناصر عقلية، ولهذا يرتبط بالاستدلال والمنطق.

وبهذا نصل إلى أن الحجاج ممارسة تواصلية تداولية، تقتضي مشاركة أطراف متفاعلة عبر الرسائل المتبادلة (لغوية وغير لغوية)؛ لأنه يتطلب إجراءً عقليًا، وجهدًا إقناعيًا، ولكونه ظاهرة اجتماعية، فهو يتطلب إلمامًا بمعطيات سوسيولوجية متنوعة، وعلى هذا الأساس عرّف بيرلمان وتيتيكا الحجاج على "أنه طائفة من تقنيات الخطاب التي تقصد استمالة المتلقين إلى قضايا تعرض عليهم"، أما الحجاج عند هاينمان؛ فهو عملية اتصالية، أو هو ضرب من ضروب البرهان، الذي يعلل الفرضيات والدوافع والاهتمام (العبد،٢٠١٠ ، ص١٠)، وكأنه هنا يعبر عن محاولة تحكم، أو امتلاك للواقع، أو التأثير في المتلقي بوساطة اللغة.

هكذا أبرزت التعريفات الحديثة الحجاج، على أنه فعل لغوي، أو عملية اتصالية، أو خطاب تفاعلي، فهو فعل لغوي تعرض فيه مقدمات وادعاءات، وعملية اتصال ضرورية؛ لإقناع المتلقي وتوجيهه إلى القبول برأي المرسل وتبني مقترحاته، ولهذا نجد طه عبدالرحمن، يأخذ بالبعد التفاعلي للحجاج، مراعًيا طبيعته التداولية، التي تستثمر كل ما قد يساعد المخاطب على الإقناع، فهو يعرف الحجاج بأنه: "فاعلية تداولية وجدلية؛ فهو تداولي؛ لأن طابعه الفكري مقامي واجتماعي، وجدلي؛ لأن هدفه إقناعي، وبلوغه قائم على التزام صور استدلالية أوسع وأغنى من البنيات البرهانية الضيقة" (عبد الرحمن، ٢٠٠٠، ص ٨٢)، فمعالم الحجاج تتداخل في كل ما هو إنساني، وذلك لأن أغلب أقوالنا تسعى إلى التأثير في المخاطب من أجل إقناعه وتعديل رأيه أو سلوكه، لهذا يقول لديه (٢٠١٥، ص ١٢) نقلًا عن فيليب بروتون: "الإقناع من الحالات الأساسية للتواصل، وذلك تبعًا لكون القصد هو التعبير عن إحساس، أو حالة، أو نظرة خاصة إلى العالم، أو إلى الذات".

وفي ضوء التعريفات السابقة، يمكن تحديد أبرز مكونات الخطاب الحجاجي، وعلاقته بالتواصل، فالحجاج حاضر حضورًا قويًا في كل مجالات التواصل الإنساني قديمًا وحديثًا، ومع كل الفروقات التي ظهرت في التعامل مع المفهوم قديمًا وحديثًا، إلا أنها تتفق في أن الحجاج يقتضي بذل الجهد لغاية الإقناع، وأنه أداة من أدوات الخطاب، التي يُتَقصّد بها استمالة المتلقين؛ لإحداث التغيير اللازم في توجهاتهم السلوكية والمعرفية. وهذا ما يدفعنا إلى التساؤل عن ماهية الحجاج، وعلاقته بالثقافة، بسبب التماس المباشر بين المعرفة الإنسانية في شتى المجالات، والحاجة إلى الإقناع عن طر ريق نقاشات جادة للبحث عن إجابات شافية. ومن هنا لخص الحباشة (٢٠٠٨، ص ١٥) وظائف الحجاج عند بيرلمان في ثلاث درجات وهي: الإقناع الفكري الخالص، الإعداد لقبول أطروحة ما، الدفع إلى الفعل. وذلك لأن الحجاج شديد الصلة بـ (الحوار، والإفحام، والجدل)، ولأن غايته التأثير بتغيير الاعتقاد أو تثبيته، فهو إذن علاقة بين باثٍ ومتلقٍ، تتأسس على اللغة والخطاب، وغايتها استمالة المتلقين وإقناعهم.

٣-الجانب التحليلي

٣-١ منهجية البحث

وقد اعتمدت الدراسة المنهج التداولي، فمنه تشكلت المرجعية العلمية للتحليل الحجاجي في سياق المنهج التداولي، وما اقترحه أرسطو طاليس من تنظير لفن الخطابة، وفي ضوئه جاء التصور الحديث، الذي رسخه كل من شايم بيرلمان، وتيتيكا (صولة، ٢٠١٠، ص ٢٩). ويتألف البحث من مقدمة والجانب النظري والتحليلي وخاتمة ملخصة لأبرز النتائج، ولئن كانت مقدمة البحث مرتكزة على البواعث والاعتبارات الدافعة لاختيار الموضوع، فهي بذلك تهيئ للجانب النظري، وفيه تنظير مرَكز عن الحجاج (مفهومه، وأهميته، ووظائفه)، في حين رَكز الجانب التحليلي على البنية الحجاجية في كتاب "روضة المحبين" ويتناول الأبعاد التواصلية للخطاب في مناظرة القلب والعين، وقد خُتمت الدراسة بخاتمة مناسبة، مبرزة أهمية الحجاج ونجاعته في الخطاب الأدبي، عن طريق التركيز على أقطاب التواصل الثلاثة (المرسل، المستقبل، الرسالة).

٣-٢ *ملامح البنية الحجاجية: كتاب روضة المحبين ونزهة المشتاقين (نموذجًا تطبيقيًا)*

أ- الملامح الشكلية، وعلاقتها بتقاليد الكتابة في فلسفة الحب

الاشتغال على جسد النص في سياق الدلالة الحجاجية، يتطلب معرفة بالوظائف الفنية، التي يؤسِّس لها الشكل، كما يتطلب تتبع الحيل، التي تمارسها البنية الشكلية لجذب القارئ، وهنا تتكشف طائفة من مظاهر الحجاج ووظائفه بصفة عامة، هذا إذا تعاملنا مع الشكل بوصفه الحبل الواصل، الذي يربط أول الكتاب بنهايته، إذ إن خطة تقسيم الكتاب لها طابع منطقي تسلسلي؛ لذا يصبح معها فهم النص مرتبطًا بتفكيك الأجزاء.

وباعتبار الشكل دالًا ومصدرًا لمتعة القراءة المتأثرة بفنية التشكيل، فإن دراسة عتبات النص ضرورة في كل بحث نقدي، يتكئ على مفهوم الشكل ووظائفه، فيتعمق في دلالة المعنى الكامن في الهيكل البنائي المتضمن عتبة العنوان وعلاقته بالأبواب والفصول، التي يتكون منها جسد النص، هذا تحليل لا يتعامل مع الملفوظ نفسه، إنما مع ما يؤسس له الشكل من علامات دالة، في ضوء مقدمات ظاهرة، تؤسس لوظائف داخلية تحدد معالم النص، وتكشف معانيه، والمقصود من هذا المسعى تقديم قراءة حجاجية مستضيئة بهيكل النص وبنائه العام، بُغية البحث عن دوره في تفعيل متعة القراءة، وتحقيق الإقناع.

هذا النوع من القراءة يفترض أن الكتابة اختيار، وأن البنية الشكلية هي مقدمات لا بد من المعرفة بأسرارها، فالقارئ ينقاد أحيانًا نحو لعبة الكتابة، وعلى افتراض الطبيعة الجدلية في النص، فإن على القارئ البحث في بنية النص الشكلية، التي تأسس عليها.

وأما في سياق نص ابن القيم، فإن هذا الفرض يستدعي عددًا من الأسئلة، يمكن إجمالها فيما يلي:

- لماذا اختار ابن القيم بناء كتابه على هذا الشكل من التقسيم والتبويب ولم يختر غيره؟

- هل من مبرر حجاجي لهذا التقسيم، أم الأمر مجرد صدفة؛ أي تشكيل عفوي غير مقصود؟
- لماذا بدأ ابن القيم بـ (باب في أسماء المحبة)؟
- لماذا قدم باب (في أن العالم العلوي والسفلي إنما وجدا بالمحبة ولأجلها) على باب (في دواعي المحبة ومتعلقاتها)، وهل ثمة قصدية تحكم علاقة السابق باللاحق في ترتيب جميع الأبواب؟
- لماذا اختار المناظرة بين القلب والعين في الباب السابع؟
- لماذا قدم باب مَن مدح العشق، على باب مَن ذمه؟
- لماذا ختم بـ (باب: ذم الهوى)؟
- هل من حكمة وراء عدد أبواب الكتاب، المحددة بـ (٢٩) بابًا، أم أنها مجرد صدفة؟
- هل من تماسك حجاجي بين أول الكتاب وآخره، أم هناك تشظ، وما أثر ذلك في القدرة الإقناعية؟

إن الشكل الذي يظهر فيه موضوع الحب في كتاب ابن القيم، يحمل بنية متماسكة، والأسلوب هو سر جمالها، كما أن التماسك هو مستودع ديمومتها، ولفهم هذه البنية لا بد لنا من تتبع الخيط الذي يربط البداية بالنهاية، فالعلاقة بين خطاب العتبات والدلالة المركزية في المتن، تتطلب تقصي التقنيات الحجاجية المتبعة في العتبات والمتن، وهي علاقة منطقية أكثر منها علاقة وظيفية؛ لأنها تصب في صلب البنية الحجاجية، وهذ ما نص عليه المؤلف في مقدمة الكتاب حين قال: "وضعنا هذا الكتاب وضع عقد الصلح بين الهوى والعقل" (ابن القيم، ٢٠٠٠، ص ١٦)، فالكتاب لم يكن رسالة كما هو الشأن في كتاب طوق الحمامة لابن حزم، ولم يكن سردًا قصصيًا كما في كتب الأخبار والنوادر، وإنما حوى كل ذلك في تأليف علمي عام، فقد أعلن المؤلف صراحة عن جنسه بقوله: " المرغوب إلى من يقف على هذا الكتاب أن يعذر صاحبه" (ابن القيم، ٢٠٠٠، ص ١٧).

وبذلك تكون للبنية المتماسكة أهميتها في النسيج الداخلي للنصوص التراثية التي تتناول موضوع الحب؛ لأن البناء المتشظي لا يتناسب مع طبيعة الكتب والأبحاث العلمية، كما لا يتفق مع تقاليد الكتابة في تلك الحقبة المتقدمة من الزمن، وهي التي تتسم بمركزية الثقافة الإسلامية، وتماسك المجتمع الإسلامي، بدرجة كبيرة انعكست على تقاليد الكتابة.

فالكتابة كما وصفها بارت (٢٠٠٩، ص ٢٠) "وظيفة، وهي علاقة بين الإبداع والمجتمع، وهي اللغة الأدبية، التي تحولت بمقاصدها الاجتماعية"، لذا فإن الشكل الذي نحن بصدد دراسته، يتضمن السمات العامة للتأليف في فلسفة الحب بالمنظور الإسلامي، أي في كتب التراث العربي، فللحب خطاب عام يقوم على الجدل، ويستوجب الانسجام بين أطرافه، حتى تتحقق غاية الإقناع، مما لا يترك مجالا للتناقض الحاصل في التشظي، الذي يخل بهذا التناغم، وعلى هذا الأساس كان التماسك هو الاختيار الأنسب؛ لأنه يشكل مفاصل الخطاب الحجاجي وأساس تكوينه، فـ"لا تعارض نتائجه مقدماته، ولا تناقض أوائله أواخره، ولا تعارض دقائقه عمومياته" وهذا ما نصت عليه (الدريدي، ٢٠٠٨، ص ٣٦)، ومن الشكل والمضمون(معًا) بُني هذا النص الحجاجي في طابعه الجدلي، وبصبغته العلمية، التي تغذي أبوابه وفصوله، وتتحكم في طبيعته العقلية الحجاجية.

هذه البنية الشكلية نجدها (تقريبًا) في كل الخطابات، التي تناولت موضوع الحب في التراث الإسلامي، وفي مؤلفات الفقهاء، ومنها كتاب (روضة المحبين)، فهو كغيره قوامه الجذب والترابط والتماسك.

ولو استقرأنا البنية التي تأسس عليها هذا الخطاب في أشهر المؤلفات التي تناولت فلسفة الحب، نجد أن هذا البناء أكسبها شيئًا من الترابط، وهذا الترابط أكسبها شيئًا من الحبكة، وهذه الحبكة أكسبتها ثراء وقيمة أدبية وعلمية، ففيها تتقاطع أجناس أدبية؛ لأنها تزخر بالتناص مع القرآن الكريم، والحديث الشريف، والخبر، والحكايات، إلى جانب التنظير العلمي، والمقاربات الفلسفية المتعلقة بخبايا النفس، وتلك بنية تطلبتها الطبيعة الحجاجية في جل الكتابة التراثية المنجزة، وفيها نلمس حضور المشافهة في الشعر، وحضور السند المتصل والرواية في السرد، وحضور المنطق، والحجاج العقلي في الحوار والمناقشة، ويمكن إثبات هذا، عبرما صرح به الأصفهاني (١٩٨٥، ص ٤٤) في مقدمة كتاب (الزهرة) في قوله: "أذكر بعقب كل باب منها ما يشاكله من الأشعار، وأقتصر على القليل من الأخبار؛ لأنها قد كثُرت في أيدي الناس، فقلّ من يستفيد منها". والكتاب السابق من أوائل الكتب، التي ألّفت في الحب، لدى الفقهاء، وإليه يعود الفضل في إرساء العديد من تقاليد الكتابة فيه.

وخلافًا لما اعتمده الأصفهاني، نجد ابن حزم (٢٠١٣، ص ١٨٤) في طوق الحمامة، يُشيد بما تحمله القصص والنوادر، التي أوردها من تجارب ذاتية؛ ليستفيد منها القارئ، كما أنه يضمّن كتابه العديد من الأخبار والوقائع التي عاشها وعاصرها، دون أن يشير إلى أصحابها، مراعاة للخصوصية، ورغبة في الستر وتجنبًا للتشهير، وهو في سياق ذلك يقول: "فلابد من ذكر ما شاهدَتْه حَضرتي، وأدركته عِنايتي، وحدثني به الثقات من أهل زماني".

وأما ابن القيم (٢٠٠٠، ص ٨)، فقد عمد إلى الموازنة وتنويع الباعث، بذكر الأحاديث النبوية، والمسائل الفقهية، والآثار السلفية، والشواهد الشعرية، والوقائع الكونية، والنكت التفسيرية، فيكون كما وصفه المؤلف في قوله: "ممتعاً لقاريه، مروحًا للناظر فيه، إن شاء أوسعه جدًا وأعطاه ترغيبًا وترهيبًا، وإن شاء أخذ من هزله ومُلحه نصيبًا، فتارة يضحكه وتارة يبكيه، وطورًا يبعده عن أسباب اللذة الفانية، وطورًا يرغبه فيها، ويدنيه" (٢٠٠٠، ص ٨)، هذا التشابه في البنى يحمل على القول بتوفر تقاليد محددة لهذا النمط من التأليف؛ فابن داود الأصفهاني (١٩٨٥) هو أول من ألّف في الحب، وقد قسم الكتاب على جزأين، في كل جزء منهما، خمسون بابًا، يُذكر في كل باب منها مائة بيت مما يشاكله من الأشعار، من جهة الهوى وتصاريفه وأحواله، ثم خُتم الكتاب بباب الوفاء بالعهد، وقد التزم المؤلف ترتيبًا منطقيًا متسلسلا ما بين أول الأبواب وأوسطها، وما بين أوسطها وآخرها، فسار على المخطط له في المقدمة بابًا بابًا، لم يقدم مؤخرًا، ولم يؤخر مقدمًا.

وقريب من منهج ابن القيم، ما اعتمده سابقه ابن حزم، حين ضمن (الأخير) رسالته في الحب ثلاثين بَابًا، جميعها في

March 28, 2021 [Vol. 32(1)]
P-ISSN: 1680-8738; E-ISSN: 2663-547X

أعراض الحب وصفاته المحمودة والمذمومة، ثم ختمها بباب الكلام في قبح المعصية، وباب فضل التعفف، ليكون آخر كلامه حضًا على طاعة الله وأمرًا بالمعروف ونهيًا عن المنكر، وهو ما فعله ابن القيم في تقسيمه لكتابه إلى تسعة وعشرين بابًا، ما قبل آخرها: الباب الثامن والعشرون وجعله (فيمن آثر عاجل العقوبة والآلام، على لذة الوصال الحرام)، وآخرها الباب التاسع والعشرون في (ذم الهوى، وما في مخالفته من نيل المنى).

ولئن كانت طريقة ابن حزم في تأسيس الشكل الحجاجي قائمة على الاختلاف في الجمع بين الضدين، ضمن ترتيب يقوم على البدء بالمحمود ويردفه بالمذموم، فإن ابن القيم يتفق معه من حيث المبدأ مع القاعدة العامة (بضدها تتميز الأشياء)؛ لذلك يعتمد في عرضه لكل باب على التعريف به، ثم يبسط الحديث في القضية، فيعرض الآراء المؤيدة، ويتبعها بالآراء المخالفة، ثم يختم بما يترجح لديه في جميع الأحوال، وهو في ذلك يسلك مسلكًا علميًا صرفًا، يتفق مع طبيعة البحث العلمي، وهذه السمة تميز كتابه عن النص السردي، والنص الوصفي معًا.

هكذا عبر كل كاتب عن تفرده في أسلوب الطرح، وعن مؤلفاته في الشكل العام، فظهرت لنا مؤلفات متعددة في فلسفة الحب الإسلامي، شكلت إنتاجًا علميًا مضطردًا، ومتلبسًا بمسحة أدبية في الوقت نفسه، بحيث غدا خطابًا عامًا، وعلامة بارزة في سياق هذا الموضوع، الذي يعد شائكًا، وضرورة اجتماعية لا بد من خوضها لدى الفقهاء، وهم تقريبًا يخضعون لنظام متقارب من التقاليد، فتلتقي لديهم أغلب الاستنتاجات مع اختلاف البيئة، والنشأة، والمذهب الفقهي، والتوجه الفكري.

ولئن تشابهت الظروف الباعثة على التأليف، إلا أن تخير الشكل يخضع لذوق عام واجتماعي في آن واحد، والاختيار الذي يضطلع به الشكل يتعلق بشعور المؤلف ومنطلقه الفكري، الذي يعبر عن طريقته في التفكير حول أدبيات الحب في البيئة العربية، كما هو الحال في مصنف ابن حزم عن البيئة الأندلسية، أو ما نحن بصدد تناوله من مؤلف ابن القيم في البيئة المشرقية، وفي جميع الأحوال شكلت تقاليد الكتابة نقطة التقاء الجميع؛ لأن الكتابة كما وصفها بارت (٢٠٠٩، ص ٢٣) "حقيقة مزدوجة، تنشأ من المجابهة بين الكاتب ومجتمعه"، أو هي على حد وصف بارت فعل اختياري، يتأسس تحت ثقل التاريخ والأعراف، كما أنها تتضمن إشكالية وأزمة وجودية لا بد من خوضها، وإذا افترضنا أن الكتابة ما تزال حافلة بذكريات استخداماتها السابقة، لنثبت الطبيعة الحجاجية للبناء الشكلي في كتاب(روضة المحبين)، فعلينا تتبع الخطاطة الحجاجية في تحليل خطي، لاكتشاف الروابط الخفية بين أبواب الكتاب وفصوله وعلاقتها بالعنوان.

ب- مكونات الشكل الحجاجي في كتاب (روضة المحبين):

١- عنوان الكتاب منطلقًا حجاجيًا:

العنوان يحمل العديد من الدلالات المرهونة بالبنية الاستعارية، التي قدمته بصيغتي تركيبين إضافيين حذف منهما المبتدأ، مكتفيًا بالخبر المضاف، وهذا التركيب الإضافي هو في الأساس بنية استعارية، وعلى أساسها يمثل العنوان قمة التحدي، بافتراض المتعة التي يُصرّح بها.

وهي بذلك جديرة ببعث التأثير الانفعالي، وقصدية الانتقال من الإخبار إلى الإمتاع في استعارتين متعاطفتين، وكلتاهما تلخصان محتوى الكتاب، وتحددان الغرض من تأليفه، والمقصود أن تنقلات القارئ بين فصول الكتاب، هي نزهة للنفس، وغذاء للروح، وتجديد للطاقة، كما أن التنقل بين الروض والخضرة يريح النفس، ويبهج القلب، وهذا ما يحيل عليه الشق الأول من العنوان (روضة المحبين)، وهو الذي يُدخل المتلقي في رحلة بحث واستكشاف عن مقومات هذا الإمتاع، فقد أغفل الحديث عن الصيغة الثانية لإثبات الصيغة التقابلية، باعتماد علاقة التشابه بين طرفي الاستعارة؛ أي بالنظر إلى شيء من خلال شيء آخر يشبهه، والاحتجاج به، وتبقى الدلالة مرهونة بفعل الإقناع، لأن الإمتاع لا يقع إلا بتحقق الإقناع، مع تحقق الإغراء الواقع في ملفوظ الحب، وما يستدعيه من الشوق الملازم له، والمعلن عنه في العنوان.

٢- **مقدمة الكتاب،** تضمنت خطاطة واصفة لمحتوى الكتاب، وهي ذات صبغة تواصلية، تبرهن على المسلك الحجاجي فيما يتعلق بأقطاب التواصل الثلاثة، والذي نص أرسطو على أبعاده الإقناعية في الخطاب، نقله الولي (٢٠٠٥)، وسوف يأتي ذكرها لاحقًا في مبحث (مكونات البنية الحجاجية)، فلا مبرر للتكرار.

٣ – **أبواب الكتاب:** وهي تسعة وعشرون بابًا، نلخص مكوناتها الحجاجية كما يلي:

- **الباب الأول:** يتضمن جملة من مترادفات الحب، عددها خمسون، وقد برر ابن القيم كثرتها إلى ما دأبت عليه العرب من كثرة أسماء ما تحب، أو تعظم، أو تهاب، وهو يعتمد في الإقناع حججًا مماثلة، منها كثرة أسماء السيف والأسد ونحوه، والاستراتيجية الحجاجية الأمثل تكمن في آلية التصنيف، التي اعتمدت التدرج من أدنى درجات الحب إلى أقصاها، فقد بدأها بالمحبة، فالعلاقة، فالهوى ...إلخ، وختمها بالهُيام، والتِّدلية والوله والتعبد.
- **الباب الثاني:** في اشتقاق هذه الأسماء ومعانيها، والاستراتيجية الحجاجية في هذا الباب تقوم على حجة (المقارنة)، التي تُظهر الاستقراء الدقيق للمعاني، بدءًا من الحسي وانتهاءً بالمعنوي، كما أنه قدمها بتدرج منطقي حسب مراتب الحب، ملتزمًا الترتيب في الباب السابق، وقد صنفها في أربع عشرة مرتبة، واستأنف كل مرتبة منها بفصل مستقل. والاستراتيجية الحجاجية هنا تتبع ما قبلها، من جهة الجدية التامة في ترتيب السابق على اللاحق، والمنهجية العلمية الصارمة في السعي إلى ضبط مفهوم الحب، معتمدًا على التصنيف المعجمي المحدد للدلالات اللغوية والنفسية. لمفهوم الحب، تمهيدًا للكشف عن المقومات النفسية والفطرية لمشاعر الحب.
- **الباب الثالث:** في نسبة هذه الأسماء بعضها إلى بعض هل هي بالترادف أم التباين، وقد أورد المؤلف حجج الرأيين، إلا أنه مال إلى الرأي الثاني، والحجة التي اعتمد عليها في الإقناع تقوم على (التناقض)؛ لأنه وضع المتلقي أمام رأيين متناقضين؛ الأول: يرفض الترادف على اعتبار أن هذه المسميات بينها فرق في صفة أو نسبة، والثاني: يقبل بالترادف باعتبار أن المسميين يدلان على ذات واحدة كالقمح

والبر، وأما ابن القيم؛ فلا ينكر القولين السابقين، ولكنه يرى أن التباين أكثر.

- **الباب الرابع:** في أن العالم العلوي والعالم السفلي إنما وجدا بالمحبة ولأجلها، والحجج الموظفة في هذا الباب متنوعة بعضها عقلية، وبعضها نقلية، وسوف يرد تفصيلها في مبحث حجج اللوغوس، فلا مبرر لتكرار ذكرها.
- **الباب الخامس:** في دواعي المحبة ومتعلقاتها، واعتمد هنا الحجاج بالسبب، ليثبت عن طريقه الغاية التي لأجلها وجِدت المحبة، وهي ما في المحبوب من صفات تدعو إلى محبته، وما قام به المحِب من الشعور بها، والحجة هنا (عقلية) تعتمد مبدأ التناسب وتقوم على المشاكلة.
- **الباب السادس:** في أحكام النظر وغائلته، هنا يبتعد عن الحجج العقلية، ويعتمد الحجج الشرعية؛ ليوصل القضية عن طريق (الاستدلال) بنصوص من القرآن الكريم والسنة النبوية، وأقوال أهل العلم، وما يؤيدها من حكم شعرية أو مواعظ نثرية، وهو ما يُعرف بـ (الحجاج بالشاهد)، ولهذا يفتتح هذا الباب بحجة الشاهد في قوله تعالى: "قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصْنَعُونَ" (النور: ٣٠)، ثم يتبعه بالدليل العقلي في قوله: "فلما كان غض البصر أصلا لحفظ الفرج بدأ بذكره" (ابن القيم، ٢٠٠٠م، ص ٦٥).
- **الباب السابع:** في ذكر مناظرة بين القلب والعين، وكان الباعث على اختيارها ضرورة وصل العلم بالعمل والنظر بالأخلاق، وبهذا تظهر الحاجة إلى المناظرة فعلية، وليست تزيينية؛ لأن موضوعها من الأمور الواقعية، ولهذا سعى إلى مقارعة الحجة بالحجة، ليثبت مسؤولية كل من الطرفين، فتسقط الدعوى، وينصب التركيز بعد ذلك على الحجاج في بعده التفاعلي بالدليل الشرعي، وسوف يُفرد لهذه الحجة فصل، فلا مبرر لتكرار ذكرها هنا.
- **الباب الثامن:** في ذكر الشبه التي احتج بها من أباح النظر إلى من لا يحل له وأباح عشقه، الحجاج في هذا المبحث يقوم على (التبكيت)، ولذلك نجد الإعلان من عنوان الفصل بأنها شبهة، والغاية من الحجاج، هو دحضها وإزالة اللبس العالق في الأذهان، بسبب التوظيف الخاطئ للشواهد الدينية في غير موضعها.
- **الباب التاسع:** وهو تابع للشبه التي أوردها في الباب السابق، وشارح لها، في ذكره الجواب عما احتجت به هذه الطائفة، وما لها وما عليها من هذا الاحتجاج، فقد عمد إلى تقسيم الدعوة إلى عناصر فرعية، ورد على كل عنصر منها منفردًا، بقصد كشف المغالطات في الاستدلال، وأخطاء القياس، وعدم كفاية الأدلة أو ضعفها أو التسرع في الحكم، وفي سياق ذلك بين أن النظر منه ما هو محرم، ومنه ما هو مكروه، ومنه ما هو مباح، ولكل حكم ما يسوغه، فلا حجة لمن يستدل بقول النبي صلى الله عليه وسلم: "أطلبوا الخير في حسان الوجوه"؛ فالحديث قد روي بسند إلا أنه باطل لم يصح عن رسول الله، ولو صح لم يكن حجة لهذه الطائفة؛ لأنه يطلب الخير منهم ولا يطلب وصالهم ونيل المحرم منهم(ابن القيم، ٢٠٠٠م، ص ٨٥).
- **الباب العاشر:** في ذكر حقيقة العشق وأوصافه، وكلام الناس فيه، وقد اعتمد على الاستقراء المدعم بالشواهد، فأورد أقوالا، لعدد كبير من الفلاسفة، والأطباء، والشعراء، والأعراب، ولتثبيت الفكرة عمد إلى طرح الآراء المنظرة لأسباب العشق كنقله عن الأطباء قولهم: "العشق مرض وسواسي شبيه بالماليخوليا، وسببه النفساني الاستحسان والفكر، والبدني ارتفاع بخار رديء إلى الدماغ"، (ابن القيم، ٢٠٠٠م، ص ٩٤)، وأيضًا نقل عن الفلاسفة قولهم: "العشق طمع يتولد في القلب ويتحرك، ثم يتربى ويجتمع إليه مواد من الحرص، وكلما قوي ازداد صاحبه في الاهتياج واللجاج والتمادي في الطمع والحرص على الطلب" (ابن القيم، ٢٠٠٠م، ص٩٤)، وهكذا يمضي في استقصاء الأسباب والدوافع، ثم يدعم نقله بشواهد متنوعة، كقول الشاعر:

قالوا جننت بمن تهوى فقلتُ لهم
العشقُ أعظمُ مما بالمجانين
العشق لا يستفيق الدهرَ صاحبُه
وإنما يُصرع المجنونُ في الحين

- **الباب الحادي عشر:** في العشق هل هو اضطراري، أو أمر اختياري واختلاف الناس في ذلك وذكر الصواب فيه، وحججه تقوم على تفنيد الرأيين، ثم الفصل بينهما بحجة تقوم على التوفيق بينهما (حجة التعدية)، وذلك باعتبار أن أسباب العشق اختيارية إلا أنها داخلة تحت التكليف، ثم عمد إلى قياس التمثيل؛ ليستميل القارئ إلى رأيه، فجعل مسببات العشق وعواقبه بمنزلة السُكر من شرب الخمر، فقال: "فمتى كان السبب واقعًا في اختياره لم يكن معذورًا فيما تولد عنه" (ابن القيم، ٢٠٠٠، ص ١٠١).
- **الباب الثاني عشر:** في سكرة العشق، استعمل حجة (المقارنة) بين ما ينتج عن الخمر من فقد الوعي، وما يجلبه العشق خاصة مع سماع الأصوات المطربة، وما فيها من ذكر المحبوب ووصف حال المحِب، فتستولي اللذة على (النفس، والروح، والبدن) أتمّ استيلاء فيحدث السكر، ومن الشواهد الدالة ما جاء في الحديث الشريف، من قول الواجد لراحلته بعد يأسه منها وإيقانه بالهلاك: اللهم أنت عبدي وأنا ربك، قال صلى الله عليه وسلم: "أخطأ من شدة الفرح"، وقد علق ابن القيم على ذلك السهو بقوله: "السكر سببه ما يوجب اللذة القاهرة التي تغمر العقل" وقال أيضًا: "ولهذا يحصل من السكر للمبتدئين في إدراك الرئاسة والمال والعشق والخمر ما لا يحصل لمن اعتاد ذلك وتمكن فيه" (ابن القيم، ٢٠٠٠، ص ١٠٤).
- **الباب الثالث عشر:** في أن اللذة تابعة للمحبة في الكمال والنقصان، فالحجة هنا تقوم على (المنفعة)، وأكدها بقوله: "هذا باب من أجلّ أبواب الكتاب وأنفعها"، (ابن القيم، ٢٠٠٠، ص ١٠٥)، والضابط في هذا الأمر أنه "كلما قويت المحبة قويت اللذة بإدراك المحبوب"، وأوجه النفع الحاصلة من اللذة متنوعة بحسب أقسامها ومراتبها، ولتقوية الحجة دعمها بشواهد مختلفة من القرآن الكريم، والحديث، والقول المأثور.
- **الباب الرابع عشر:** فيمن مدح العشق وتمناه وغبط صاحبه على ما أوتيه مناه، وقد ساق من الشواهد ما يقوي حجة

March 28, 2021 [Vol. 32(1)]
P-ISSN: 1680-8738; E-ISSN: 2663-547X

أصحاب هذا الرأي، وحجتهم تقتضي أن "كمال اللذة تابع لكمال المحبة"، ولتقريبها إلى الأذهان عمد إلى (قياس التمثيل): فـ"العشق للأرواح بمنزلة الغذاء للأبدان، إن تركته ضرك، وإن أكثرت منه قتلك" (ابن القيم، ٢٠٠٠)، والراجح في هذه الحجة أن ابن القيم، قد عمد إلى بسط المسألة وتفنيدها، لأنه لم يغلب أي من الرأيين، وإنما رد الضعيف من القول المسند إلى النبي ﷺ، وما يخالف العقل السليم، وقبل من الحديث ما صح سنده، ومن أقوال الشعراء ما وافق المنطق والعقل السليم.

- **الباب الخامس عشر**: فيمن ذم العشق وتبرّم منه وما احتج به كل فريق على صحة مذهبه، ومسلكه في هذا الباب كسابقه، يقوم على الاحتجاج بالشواهد، ثم تقوية الرأي الصواب، بالحجج القائمة على التجارب الواقعية، والشواهد الشرعية، ويمكن أن نعد الحجة هنا مستمدة من السلطة الدينية، فيما نص عليه القرآن الكريم في شأن أصحاب الهوى المذموم ومآلهم، فبدأ بهوى إبليس الحامل له على التكبر عن طاعة الله- عز وجل- في أمر السجود لآدم، ثم ذكر قصص الأقوام الهالكة، وما صاروا إليه من هلاك، بسبب اتباع الهوى، وتلك من أقوى الحجج الباعثة على التصديق.
- **الباب السادس عشر**: في الحكم بين الفريقين وفصل النزاع بين الطائفتين، والحجة مؤسسة على الفصل في الخلاف القائم بين الفريقين: مَن مدح العشق، وَمن ذمه في البابين السابقين، والمرجح لديه أن "العشق لا يُحمد مطلقًا ولا يُذم مطلقاً" (ابن القيم، ٢٠٠٠، ص ١٣٢)؛ لأن الإرادة تابعة لمرادها، وعلى هذا الأساس، فالحجة المتبعة في هذا الباب تقوم على (العلاقة التبادلية)؛ لتقابل المحاججة بين الأمرين المتعاكسين (ذم العشق ومدحه)، ويتبع ذلك تقديم الشواهد المدعمة لما يُذم، وما يُمدح في العشق على حد السواء، بموضوعية تامة، ودون تحيز لأحد الرأيين، فضرب أمثلة متنوعة لكلا الرأيين؛ فمن العشق المحمود (حب الله عز وجل، ومحبة ذكره، ومنه محبة المخلوق للمخلوق بما يحبه الله ورسوله).
- **الباب السابع عشر**: في استحباب تخير الصورة الجميلة للوصال الذي يحبه الله ورسوله، ولما كان هذا الباب بعيدًا عن الجدل المحض، والخلاف القائم بين ما يحل ويحرم، واشتراطه ألا يوقع النظر إلى ما حرم الله، كان فيه من السرد القائم على الحجج الواقعية مما عُرف من أحوال المحبين وتعلقهم من النظرة الأولى، وكانت الحجة الأقوى أن يتخير الحجج المؤسسة على (الواقع)؛ لجعل المعطيات المتصدرة في العنوان أقرب إلى التسليم.
- **الباب الثامن عشر**: في أدواء المحبين وكمال الوصال الذي أباحه الله رب العالمين، احتج بالشواهد المعززة لرأيه، في أن شفاء المتحابين في التقاء الروحين والتصاق البدنين.
- **الباب التاسع عشر**: في ذكر فضيلة الجمال وميل النفوس إليه على كل حال، اعتمد حجج الربط بالواقع المدعم بالشواهد للتسليم بالحكم، في قول النبي ﷺ: "لم ير للمتحابين مثل النكاح" (رواه ابن ماجه)، وقد اتفق رأي الأطباء والعقلاء وغيرهم أن شفاء هذا الداء في التقاء الروحين والتصاق البدنين (ابن القيم، ٢٠٠٠م، ص ١٤٠).
- **الباب العشرون**: في علامات المحبة وشواهدها، وحجته تقوم على (التقسيم)، فقد عمد إلى تقسيم النفوس على ثلاثة أقسام (علوية، وغضبية، و شهوانية)، وكل نفس تميل إلى ما تستحسنه، وعلامات المحبة في كل نوع تكون حسب ميل محبوبه ومراده، ومن تعدد علامات الحب وكثرتها، يمكن استخلاص حجة إقناعية في اعتماده على هذا الكم الكبير من العلامات، ليثبت استحالة ظهور هذه العلامات في حالة واحدة، لكن هذا لا يمنع من اشتراك أكثر من قسم في علامة واحدة، وعلى هذا الأساس اعتمد حجة (التعدية)؛ لأن هذا يؤدي إلى تبادل العلامات بالضرورة، وحجة (الكيف) هي الموضحة والمبررة للتعدية.
- **الباب الحادي والعشرون:** في اقتضاء المحبة إفراد الحبيب بالحب وعدم التشريك بينه وبين غيره فيه، وهذا الفرض مبني على مقدمتين ظنيتين، الأولى يؤيدها ابن القيم، ومفادها: إن "قوى الحب متى انصرفت إلى جهة، لم يبق فيها متسع لغيرها" (ابن القيم، ٢٠٠٠، ص ١٨٧)، ويقوي ابن القيم هذا الفرض بشواهد، منها ما جاء في أمثال الناس: كقولهم: "ليس في القلب حبان، ولا في السماء ربان"، أو ما جاء في الكتاب والسنة وأقوال الشعراء من شواهد مؤيدة، وهي بصفة عامة تصب في حجة الإقناع بالشاهد.

أما القضية الثانية؛ فهي عكس الأولى، ومفادها أن " القلب حمّال فما حمّلته تحمّل"، بمعنى أن القلب يمكن أن تكون له وجهتان فأكثر، فيتوجه إلى إحداهما، ولا يشغله توجهه عن الأخرى، ويقوّي هذا الفرض شواهد مختلفة منها على سبيل المثال: إن النبي ﷺ، كان يسمع بكاء الصبي؛ فيخفف الصلاة، مع أن قلبه متوجه إلى ربه، لكنه لا يشغله عن مراعاة أحوال الناس، ومثل هذه الشواهد كثير إنما أوردنا ما تيسر.

على أن ابن القيم إذا كان عرض رأيين مختلفين ومال إلى ترجيح الأول وهو المتصدر في عنوان الفصل، إلا أنه اعتمد حجة (عدم التناقض) للإقناع، وذلك بعد أن عرض شواهد (حجج) كل رأي، فقال: "والتحقيق أن المحبوب لذاته لا يمكن أن يكون إلا واحدًا"، ومستحيل أن يوجد في القلب محبوبان لذاتهما، وليس الذي يُحب لذاته إلا إله الحق الغني بذاته عما سواه، وأما ما يحب لأجله فيتعدد، (ابن القيم، ٢٠٠٠، ص ١٨٩).

- **الباب الثاني والعشرون:** غيرة المحبين على أحبابهم، وهنا اعتمد حجة (التقسيم)؛ فقسم الغيرة على قسمين: غيرة للمحبوب، وغيرة عليه، فأما الغيرة له؛ فهي الحَمية له إذا استهين بحقه، وانتقصت حُرمته، وناله مكروه من عدوه، فيغضب له ويُحارب مَن آذاه، وهذه الغيرة هي التي تحمل على بذل النفس والمال للمحبوب، وأما الغيرة على المحبوب؛ فهي أنفة المحب وحميته أن يشاركه في محبوبه غيره، وهذه أيضًا نوعان: غيرة المحِب وغيرة المحبوب، وغيرة المحبوب مقسمة على: مذمومة ومحمودة، ولكل من القسمين عدد من الشواهد، مما يقوى حجة هذا التقسيم، ومنها التدعيم بالشاهد الديني في القرآن الكريم، كقوله تعالى: " قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ" (الأعراف. ٣٣). فهذه هي الغيرة المحمودة، وقد أورد لها حججًا متنوعة من السرد القصصي المتعلق بغيرة نساء النبي، كغيرة أم المؤمنين

March 28, 2021 [Vol. 32(1)]
P-ISSN: 1680-8738; E-ISSN: 2663-547X

عائشة من خديجة-رضي الله عنها- فقد قالت: "ما غرتُ على امرأة قط ما غِرتُ على خديجة من كثرة ذكر النبي ﷺ إياها..."(ابن القيم، ٢٠٠٠م، ص ١٩٣)، أما المذمومة؛ فهي كما ذكر النبي ﷺ: "إن من الغيرة ما يحب الله ومنها ما يكره الله فالغيرة التي يحبها الله الغيرة في الريبة، والغيرة التي يكرهها الغيرة في غيرة ريبة"، ومن الشواهد المدعمة لكراهة هذه الغيرة، ما رُوي عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه- أنه كان شديد الغيرة وكانت امرأته تخرج فتشهد الصلاة فيكره ذلك، فتقول: إن نهيتني انتهيت، فيصمت امتثالا لحديث النبي ﷺ: "لا تمنعوا إماء الله مساجد الله" (ابن القيم، ٢٠٠٠، ص ١٩٤).

-**الباب الثالث والعشرون:** عفاف المحبين مع أحبابهم، اعتمد حجة السلطة الدينية، المدعمة لمخافة الله، والمانعة من معصيته وانتهاك حرماته، ولهذا مال إلى سرد حجج التمثيل بالشواهد القصصية، وهي كثيرة ومتنوعة. ولعل أكثرها حجة وإقناعًا، ما ورد عن يوسف الصديق من العفاف، فعلى الرغم من توافر كل مبررات الضعف والانحراف، لأنه كان شابًا، والشباب مَركِب الشهوة، وكان عزبًا ليس عنده ما يعوضه، وكان غريبًا عن أهله ووطنه، والمقيم يستحي أن يفعل السوء، فيسقط من عيون أهله، فإذا تغرب زال هذا المانع، وكان عبدًا مملوكًا، والعبد لا يأنف مما يأنف منه الحر، وكانت المرأة ذات منصب وجمال، والداعي مع ذلك أقوى، وكانت هي المراودة مما يقلل من خوف الفضيحة، وزيادة على ذلك المرأة في بيتها وسلطانها، لذا فهي تعرف وقت الإمكان ومكانه، وزادت مع ذلك تغليق الأبواب لتأمن مفاجأة الداخل، وأتته بالرغبة والرهبة، ومع ذلك كله تعفّف ولم يطعها مخافة لله، وعلى هذا النحو يمضي ابن القيم في بسط الحجج، التي تغلّب مخافة الله مع ما توافر له من المغريات، وكل هذه الحجج العقلية من شأنها أن تترك في نفس القارئ أعظم الأثر في السعي إلى رضا الله وتجنب سخطه، والقضية الكبرى التي ينطلق منها الحجاج في هذا الشأن، أن من ترك شيئًا لله عوضه الله خيرًا منه.

-**الباب الرابع والعشرون:** ارتكاب سبيلي الحرام وما يفضي إليه من المفاسد والآلام، هذا الباب هو الحجة الباعثة على الاقتناع للإقلاع عن بوادر الزنا، وما تفضي إليه من الوقوع في الفواحش، فقد اعتمد التوجيه بالمثل، وأورد كثيرًا من السرد القصصي في القرآن الكريم، والسنة النبوية، وما ورد عن بني إسرائيل، وسير التابعين، إلى غير ذلك من الأحاديث والنوادر والأخبار.

- **الباب الخامس والعشرون:** رحمة المحبين والشفاعة لهم إلى أحبابهم في الوصال الذي يبيحه الدين. القاعدة المؤسس عليها الحجاج قوله تعالى: (مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتًا) (النساء. ٨٥)، والنتيجة: ما يترتب على ذلك من ضرر أو منفعة؛ لذا حجته في الشفاعة تتفق مع ما أمر الله به في قوله تعالى:(وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ) (سورة المائدة. ٢)، وهنا تتنوع الحجج ما بين الشاهد المؤيد، والحجة المقارنة، التي تجعل المتلقي يقبل بالنافع، ويرفض الضار الفاسد من الشفاعة، وأول حجة يسوقها شفاعة النبي ﷺ لزوج بريرة لما عَتَقَتْ واختارت نفسها، وكان زوجها يمشي خلفها ودموعه تسيل على لحيته، فقال لها النبي ﷺ: "لو راجعته فإنه أبو ولدك" فقالت: أتأمرني؟ قال: "لا، إنما أنا شافع" قالت: فلا حاجة لي فيه (رواه البخاري في باب الزكاة) وأورده ابن القيم (٢٠٠٠، ص ٢٤٢)، وهذا الشاهد من أقوى الحجج الدالة على الرحمة بالمحبين والشفاعة لهم.

- **الباب السادس والعشرون:** ترك المحبين أدنى المحبوبين رغبة في أعلاهما، والحجة المدعمة، هي حجة (الشاهد) من القرآن، والحديث الصحيح الموثوق السند، وما قال به أولو الفضل والشرف من سلف الأمة، ويتطلب الإقناع هنا الانطلاق من قضية كبرى مفادها أن النفوس الفاضلة الشريفة لا تقنع بالدون، ولا تبيع الأعلى بالأدنى، ومن ثم كان السعي إلى التقوية بحجج متدرجة من الشاهد القرآني الصريح ، إلى الشاهد الضمني في الشعر الفصيح، ومن ثم يأتي السرد القصصي الذي يعزز القيمة الإيجابية لمن يعقل ويتدبر، فيترك ما حرم الله، والنتيجة التي يهدف إليها الحجاج في هذا الباب الاقتناع التام بأن الذل في طاعة الله أقرب من العز في معصيته (ابن القيم، ٢٠٠٠م، ص ٢٥٥).

- **الباب السابع والعشرون:** فيمن ترك محبوبه حرامًا فبذل له حلالا أو أعاضه الله خيرًا منه، استخدم الحجة بـ (الأنموذج)، فقد أورد جملة من الأعلام الذين نقتدي بهم، مثل: ترك يوسف -عليه السلام- إغراء زوجة العزيز طلبًا لرضى الله - عز وجل-، فعوضه الله بالنصر، ويُسمى هذا النوع الحجة بـ (النافع)، والمقصود بالنافع ما ينفع الإنسان في حياته (الرحموني، ٢٠١٣م، ص ٢٥)، وقد ضرب ابن القيم أمثلة كثيرة لما يحصل للمرء من منافع، وما يتجنبه من أضرار عند إقباله على الطاعات وتركه المعاصي.

- **الباب الثامن والعشرون:** فيمن آثر عاجل العقوبة والآلام، على لذة الوصال الحرام، الحجاج في هذا الباب يقوم على عدة طرائق، لأنه يهدف إلى حشد أكبر قدر من الحجج المقنعة بفضيلة التعفف، وذلك تمهيدًا للخاتمة، في الباب التاسع والعشرين والأخير.

وهو في جميع الحجج الموظفة يسعى إلى (ضرب المثل) لأخذ العبرة والعظة، ومراجعة النفس، وتقديم التوبة، قبل الموت، ولهذا تصدرت هذا الباب حجة التجسيد، فجعل لمن آثر الآجلة وفضلها على العاجلة بابًا يدخل منه، وهذا الوصف الحسي قائم على الاستعارة الفعلية في قوله: (يدخل منه)، ومن ثم استعان بحجة القصر بـ (إنما) في قوله: "هذا باب إنما يدخله رجلان"، فشبه السعي للآخرة، وترك اللذة الفانية بباب يدخله رجلان؛ الأول: تمكن من قلبه الإيمان بالآخرة، وما أعد الله فيها من الثواب والعقاب لمن عصاه، فآثر أدنى الفوتين، واختار أسهل العقوبتين، والثاني: رجل غلب عقله على هواه فعلم ما في الفاحشة من المفاسد، وما في العدول عنها من المصالح فغنم وسلم (ابن القيم، ٢٠٠٠م، ص ٢٩٣).

- **الباب التاسع والعشرون:** في ذم الهوى، وما في مخالفته من نيل المنى، الحجاج هنا يقوم على (الموازنة) بين الرأيين، والغاية من ذلك أن الهوى لا يُذم على الإطلاق، وإنما الغالب فيه، والاستراتيجية الحجاجية هنا تتبع ما قبلها، إذ سبق

March 28, 2021 [Vol. 32(1)]
P-ISSN: 1680-8738; E-ISSN: 2663-547X

التمهيد لها في البابين السابقين بسرد القصص المؤثرة، والأشعار المعبرة، والآيات المذكرة بسوء العاقبة وحسن المآل، ولهذا بدأ بقوله: "وقد تقدم ذكر الآيات في ذلك وبعض ما ورد في السنة"(ابن القيم، ٢٠٠٠م، ص ٣٠٠)، وبذلك يكون قد ختم كتابه بالحجة نفسها التي بدأ بها الباب الأول، من جهة الجدية التامة في ترتيب السابق على اللاحق، والمنهجية العلمية الصارمة في السعي إلى ضبط مفهوم الهوى.

ج- مكونات البنية الحجاجية في كتاب روضة المحبين ومقومات تفوقه الحضاري

في هذا المستوى تلتقي البلاغة بالحجاج، لأن الإقناع والاستمالة يتطلبان عناصر حجاجية، لدعم الرأي الصائب وتبريره، والقصد التأثير في المتلقي، لاستمالته وجعله يتقاسم مع المخاطب اعتقاده الخاص، أو إغرائه لتبني رأيه، وهنا تتحدد مكونات وظيفة البنية الحجاجية، وتلك وظيفة يتوسل بها الكاتب لإيقاع التصديق.

وقد ذكر لديه (٢٠١٥، ص ص ٣٨-٣٩) أن البراهين والحجج الموظفة لتحقيق الإقناع، تندرج في ضربين رئيسيين:

١- حجج وبراهين جاهزة (غير صناعية): وتكون بأمور متقدمة كالشهود والعذاب؛ لأن التصديق بها يكون موجود سلفًا، وما على الخطيب إلا أن يتبناه أو يرفضه بحسب ملاءمته لمقاصده.

٢- حجج وبراهين غير جاهزة (صناعية)، وهي حجج أوكل أرسطو صناعتها وإنشاءها إلى الخطيب وأرجع مادتها إلى القول نفسه، فمنه تشتق وإليه تستند، وترتبط قوة هذا اللون من الحجج بقدرة المرسل على التَّخيّل، وإيجاد المناسبة بين الحجة وسياقها، كما تتوزع هذه البراهين الأرسطية على ما هو عقلي (الحجج اللغوية المنطقية)، وما هو عاطفي(الحجج الانفعالية)، وكل الحجج تصب في اتجاه التمكن من إقناع واقتناع المخاطب بفحوى الخطاب، هذه الحجج منها ما يرجع إلى القائل نفسه، أو ما يرجع إلى السامع، ومنها ما يرجع إلى القول، ويمكن تناولها على النحو الآتي:

٣-٣ الملامح الوظيفية للبنية الحجاجية

١- حجج المرسل ومظهره العاطفي أو الإيتوس (Ethos)

تبرز أهمية الإيتوس في الصورة الإيجابية التي ينقلها المؤلف عن نفسه، ليكون قادرًا على جذب المخاطب وإثارة عاطفته، وهذا مما يجعل الإيتوس أحد مكونات الخطاب الأساسية، ومع أن التصور البلاغي القديم منذ أرسطو تناول الإيتوس في صلته بالمقاصد الحجاجية للخطابة، إلا أن محللي الخطاب لا يركزون على الأهداف التداولية للإيتوس، بل ينصب اهتمامهم على تحليل صورة الذات الكاتبة كونها جزءًا لا يتجزأ من التواصل، ومكونًا أساسيًا من مكونات الخطاب.

ويعد دومينيك مانغونو أول من أدخل مفهوم الإيتوس إلى حقل تحليل الخطاب الأدبي؛ فقد" انطلق في تحليله لهذا المفهوم بوصفه جزءًا من المشهد التلفظي، وليس مجرد وسيلة للبرهنة والإقناع، وهو بذلك يتجاوز إطار الحِجاج إلى الإقناع بالحُجج من خارج النص (الزماني،٢٠١٩، ص ٣٣)؛ وبهذا تتحدد وظيفة الإيتوس عند مانغونو في ترك انطباع حسن لدى المخاطب من الطريقة التي يبني بها خطابه.

ويتمثل ذلك في تقديم صورة للذات تكون قادرة على إقناع المخاطب ونيل ثقته؛ فطريقة بناء المتكلم لصورة ذاته في خطابه وتقديمها، هي ما يُسهم في تحقيق الانطباع المطلوب، وبناء على ذلك يكون الإيتوس غير مرهون بالنصوص الشفاهية، بل إنه يمكن دراسته ضمن النصوص المكتوبة، وذلك لأن النصوص المكتوبة تتضمن خاصية تواصلية بصرية، تسمح بربط النص بخاصية انفعالية تميز الجوانب الذاتية، التي يكشف عنها المُخاطِب. وإذن المفهوم يتعلق بالسمات النفسية، والهوية الثقافية للمُنتِج، عبر الولوج إلى عوالمه الداخلية، ضمن السياق الاجتماعي، والسياق التاريخي، الذي أُنتج فيه الخطاب.

ويتوقف هذا النوع من الحجج على أخلاق المتكلم، وصفاته ومظهره العاطفي؛ فالمرسِل يحتاج أن يكون صالحًا خُلقيًا، موسومًا بالثقة؛ ليكون محل تصديق المتلقي، ومَوْضوع قبوله العاطفي (لدية، ٢٠١٥)، وبناء على ذلك فإن تقديم صورة الذات في (روضة المحبين) أسهمت بدور كبير في إقناع المُخاطَب؛ لأن النص مرهون بإطار اجتماعي، ومؤسسي ينتمي إليه الكاتب، والانطباع الذي تتركه الرسالة، يتواءم مع البيئة الثقافية، التي ينتمي إليها المبدع، بوصفه فقيهًا؛ لذا يبني صورته ضمن الحدود، التي تفرضها سلوكيات رجل الدين، ولهذا فالإطار الخطابي جاء ملاءمًا للإطار الاجتماعي والمؤسسي.

إن الإعلاء من شأن المتكلم بإحلاله محل العارف المتيقن، يُعد نوعًا من أنواع الحُجج الشخصية، التي تستمد قوتها من سلطة ابن القيم العلمية، بوصفه صاحب مشروع إصلاحي اجتماعي، فهو الفقيه الحنبلي المعروف، أحد أركان الإصلاح الإسلامي، وأحد كبار علماء المشرق العربي في القرن الثامن الهجري (الذهبي، ٢٠١٠)، ومن البديهي أن المعرفة القبلية، تتحكم في الطريقة التي يبني بها ابن القيم خطابه، وإن كان للمكانة الدينية التي يتمتع بها قوة حجاجية، يمكن الاتكاء عليها في تحسين صورة الذات، أو بناء الإيتوس الشخصي، إلا أن القوة الحجاجية هنا تظهر في المصداقية التي يؤسس لها منهج التأليف، بفرض ثلاث حجج عاطفية هي:

- **المصداقية:** ويظهر صدقه وإخلاصه في التزامه الأمانة في النقل عن الآخرين، وعدم التشهير بهم، ولذلك أعلن في المقدمة عن نيته في التأليف قاصدًا رضى الله «الفاتح من الخير كل باب، وهو المسؤول سبحانه أن يجعله خالصًا لوجهه الكريم، مدنيًا من رضاه، والفوز بجنات النعيم، والله متولى سريرة العبد وكسبه» (ابن القيم، ٢٠٠٠)، وهو ما يؤكده مستشهدًا بقوله تعالى: "وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)(التوبة. ١٠٦). هذه النهاية التي اختارها لمقدمة كتابه خير شاهد على جديته؛ لأنها تقدمه في صورة الخبير العارف، وتجعله أكثر شفافية وإحساسًا بنوازع النفس البشرية، وأكثر صدقًا وواقعية في معالجة السلوك الظاهر في العديد من القصص، التي لم يذكرها عبثًا، وإنما وظفها لدورها الحجاجي الممثل في قدرتها على استمالة المخاطب وإقناعه.

ويُضاف إلى ذلك أنه اتكأ على سيرته القبلية التي تمنحه الحق في الكلام، وتبني مشروعيته بوصفه فقيهًا ومرسخًا للمذهب الحنبلي، ومن تحسين صورة الذات والتأكيد على صدق

March 28, 2021 [Vol. 32(1)]
P-ISSN: 1680-8738; E-ISSN: 2663-547X

نيتها، يؤسس ابن القيم لقوة إقناعية، تتمتع بحجة عاطفية، تضمن له شرعية ترسخ رسالته، وتضمن له التقبل الفكري، وهذا المنزع يقوم على السمات الأخلاقية من صفات السداد والفضيلة.

-**التجربة الشخصية:** المعرفة العلمية وحدها لا تكفي، إذ لابد من التجربة، ليأتي الإقناع بناء على تصور الفقيه العارف بالإسلام والمسلمين، والمتفهم لمشاعرهم الذاتية، ونوازعهم البشرية، لكنه يستدرك محترزًا من الوقوع في الخطأ، أو الميل عما لا يوافق رأي القارئ، لأن ما أتى به من آراء في الحب هي جهد بشري، قد يعتريه النقص أو الخطأ، ولهذا يحترز عن الخطأ بقوله: "هذه بضاعته تُعرض عليك، ومولیته تهدى إليك، فإن صادفت كفؤًا كريمًا لها، لن تعدم منه إمساكًا بمعروفٍ، أو تسريحًا بإحسان، وإن صادفت غيره، فالله تعالى المستعان"(ابن القيم، ٢٠٠٠، ص ١٨).

ولعل التلقي المثالي، الذي يتطلع إليه المؤلف، نقد جميل غير جارح ولا مستهجنٍ؛ فالمنصِف من يهب الخطأ إلى الصواب، والسيئات إلى الحسنات، بهذه الشفافية كشف المؤلف عن مشاعره تجاه التلقي المتوقع، ما بين الرفض التام، أو القبول المحض، أو الأخذ والرد، ويغلب على ظنه أنه مشروع مقبول، فلا معصوم غير سيد الخلق ونبي الأمة، ولهذا يختم مقدمته، بالتأكيد على جديته وأمانته في النقل، فيقول: "فإن صح النقل لم يكن القائل معصومًا، وإن لم يصح لم يكن وصوله إليه معلومًا" (ابن القيم، ٢٠٠٠، ص ١٨)، فالمعرفة وحدها لا تكفي، والاجتهاد في طلبها ربما لا يفي، ولهذا نراه قد استهل مقدمة كتابه بقوله: "رب يسّر يا كريم"، وفيها دعاء تودد، وتقرب إلى الله، أن يحالفه التوفيق فيما يسعى إليه، و هذا المسلك فيه إجراء حجاجي وعاطفي، يحاول بوساطته إظهار شدة حرصه وتحرزه من الوقوع في الخطأ أو الخلط، كما أنه يستدعي التسليم والثقة بما فيه من معارف وأفكار؛ لأنها صادرة عن عقل واعٍ، ومفكر أمين، حريص كل الحرص على تحري الدقة التامة في النقل والتوثيق.

- **الجدية**: وهي سلوك يدعو إلى التعقل، ويظهر مزية ذلك في الذوق السليم، والتهذيب الجليل، والاستغناء بالتلميح عن التصريح مما يكشف عن ذوقه في الإعجاب، وتعلقه بالجمال واستحسانه له، لكن دون أن يقع في المحظور، أو ما يُخل بهيبة الشيخ الوقور.

ولئن كان قد أورد العديد من الأقوال النثرية والأبيات الشعرية، التي أظهرت نوعًا من المكاشفة والبوح في التعبير عن العشق، وما يتبعه من لقاء المحبين، إلا أن وقوع التصريح كان فيما ينقله عن غيره، فيورده ويعلق عليه ما بين توضيح أو استهجان، إلا أنه فيما ينقله عن نفسه، لا يقع منه تصريح البتة، إنما يكني عن المعاشرة وما يتبعها من دواعي العشق، مثال ذلك: في قصيدته، المعروفة بـ "الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية" التي أورد منها قرابة مائة بيت (ابن القيم، ٢٠٠٠، ص ١٥٦)، نجده قد ضمنها ما ورد من الأدلة الصحيحة في القرآن الكريم، والسنة النبوية، وأقوال الصحابة، وسلف الأمة، مبينًا صفة عرائس الجنة، ولذة وصالهن، بأسلوب مؤثر، موظفًا ما يستدعيه النظم من المجازات والكنايات، بما يتلاءم مع سيرة عالم رباني من كبار علماء المسلمين، له أثر عظيم في نشر العقيدة الإسلامية الصحيحة.

وهو في طرحه المعتدل لهذا الموضوع، يعطي صورة راسخة عن المجتمع الإسلامي، وما تعتريه من مشاعر الحب الرفيع والعلاقات الإنسانية السامية، وهي مشاعر بعيدة كل البعد عن العنف والقمع والصراع الحربي، كذلك هي تميل إلى التحفظ والبعد عن الانسلاخ في الوصف والشرح والتمثيل؛ لأنها تصدر عن رجل محسوب على طبقة رجال الدين.

٢- حجج المستقبل (المتلقي) ونوازعه النفسية أو الباتوس (Pathos)

الاهتمام المطلق بالمقومات الموضوعية أو الصورية للحجاج، وتجاهل الجوانب الذاتية الانفعالية لكل من المرسلِ والمتلقي، أدى إلى اختزال الإنجازات الأرسطية في المكونات الأسلوبية المتمثلة في (اللوغوس)، وقد ترتب على ذلك تعطيل المقومات اللوجستية، أي المقومات الذاتية والانفعالية، وهما العنصران المتعلقان بالإيتوس، والباتوس، أي سيكولوجية الباث وسيكولوجية المتلقي، والأمر هنا يتعلق بالنوازع الذاتية، التي يكون عليها المتلقي الضمني، أي التي يطلق عليها (الباتوس)، وتعني توجيه المتلقي نحو الإقناع، عن طريق التحكم في الانفعالات التي ينبغي إثارتها لديه؛ لأن القدرة على الحجاج الجيد تقتضي «المعرفة بما يمكن أن يحرك الذات التي نتوجه إليها بالخطاب» (الولي،٢٠٠٥، ص ١٢٤)، فالإقناع لا يعتمد على الحجج العقلية فقط، وإنما يتطلب حيازة عواطف المتلقي واستدراجه نحو الاقتناع.

وما ذلك إلا لأن المعرفة بنوازع المتلقي، وميوله، وانفعالاته هي التي تحمل المقاصد التواصلية بين المرسل والمستقبل، وابن القيم في مؤلفه لا يكتفي بالمقدمات الحجاجية، بل إنه يستدعي العناصر الحاضرة في ذهن المتلقين ويجعلها أكثر تأثيرًا بفضل قوة الأسلوب وحجاجيته، ثم بفضل فطنته وسعة معرفته بحال متلقيه، وموروثهم الثقافي وتطلعاتهم، إذا ما أراد إقناعهم.

ومثال ذلك ما مهد له من اختلاط المشاعر التي تتفاقم مع امتداد الخطاب؛ لأن أسلوبه في التوجيه ينهض على مشاعر مختلطة بين الترغيب والترهيب، ولذلك وصف محتوى الكتاب بقوله: "ومنه ما يكون ممتعًا لقاريه، مروحًا للناظر فيه، فإن شاء أوسعه جدًا وأعطاه ترغيبًا وترهيبًا" (ابن القيم،٢٠٠٠، ص ١٨).

ثم يقرّب هذا المفهوم بضرب مثال توضيحي، للعاشق إذا استحضر في قلبه الآخرة ونعيمها على لذة الدنيا الفانية، أثمر ذلك معرفة ثالثة، وهو أن الآخرة ونعيمها الدائم، أولى عند كل عاقل من الفانية العاجلة، (ابن القيم، ٢٠٠٠، ص ١٢)، وكل هذه الشواهد تُظهر الفرق بين الإقناع الذي يخاطب الخيال والعاطفة، والإقناع الذي يخاطب العقل والجوارح، لأن الحجاج أو الإقناع الذي يهدف إلى توجيه السلوك، يتطلب المعرفة بما يؤثر في الذات التي يُتوجه إليها بالخطاب، أي ما يغيرها ويحركها تجاه الهدف من الرسالة، وحينما يكون الخطاب خاصًا بما يُثير الغرائز فمن الأفضل أن يكون متراوحًا بين العقل والعاطفة، بما يحقق التوازن في حياة الفرد.

March 28, 2021 [Vol. 32(1)]
P-ISSN: 1680-8738; E-ISSN: 2663-547X

والناظر في تعريف المحبة عنده يجدها من الأمور الوجدانية، فهو يرى أن المحبة من أعمال القلوب وصفات الروح، لكن لها علاقة بالسلوك؛ لأن العاشق يمكِّن معشوقه من كل ما فيه ظلم، أو يسعى له فيما لا يستحق، فيغش بذلك الأمة، أو يقف معه ضد خصمه، وإن كان خصمه على حق، (ابن القيم، الجواب الكافي،٢٠٠١، ص ٥٥)، ولهذا يحذر ابن القيم من الانجراف وراء العاطفة، لكنه لا ينكرها أو يحارب وجودها، وإنما يوجه العلاقة بين القلب والعقل، بأن يجعل للعقل سلطانًا على القلب.

وهنا تنكشف الخطط الحجاجية التي يضعها المؤلف بين يدي القارئ؛ لبناء القوة الإقناعية الملائمة للمتلقين المحتملين، وتتحدد آفاقها برؤية تربوية تعزز مفهوم التربية الفكرية، فالفكر كما عرفه(ابن القيم، ٢٠١٩، ص ١٨١) "إحضار معرفتين في القلب، ليستثمر منهما معرفة ثالثة"، والخطاب التربوي، الذي يوجهه ابن القيم تتشعب روافده في عدة نواحٍ، تتعلق بالتربية الروحية، والتربية الجنسية، والتربية الأخلاقية، وكلها تصب في رافد واحد هو المحبة، التي جعلها أساسًا لكل شيء ومنشأ لكل عدم، ولهذا كان المعلن في المقدمة هو توجيه الرسالة إلى متلق غير محدد؛ لأن الخطاب العام يميل إلى توجيه السلوك العام، يقول: «وهذا الكتاب يصلح لسائر طبقات الناس. فإنه يصلح عونًا على الدين وعلى الدنيا، ومرقاة اللذة العاجلة ولذة العقبى» (ابن القيم، ٢٠١٩، ص ١٨).

٣- حجج اللوغوس (Logos) لإحداث الإقناع الذي يصاحبه الإمتاع

والمقصود هنا حجاجية اللغة الموظفة في الخطاب، لتسويغ وجوه الاستدلال المتحقق بالقياس والاستقراء وما يتضمنهما من تصديقات، و"يتميز هذا النوع من الحجاج بأنه يخضع كليًا لإرادة منجز الخطاب، إذ تتحول مادة الحجاج إلى قوة إقناعية عن طريق عملية منطقية موجهة لغايات إقناعية" (صمود، د.ت.، ص ١٣)، وقد اعتمد ابن القيم كل ما من شأنه تأييد القضايا التي يطرحها، بالحجة البالغة والدليل القاطع، والبرهان المستمد من القرآن الكريم، والسنة النبوية، وما أرشد إليه العقل، ودلت عليه الفطرة السوية، وما نُقل عن سلف الأمة، من آثار الصحابة والتابعين، من غير تركيز على منهج المناطقة، وإن كان قد اعتمده في بعض المواضع، التي لا تتعارض مع الدليل الشرعي، والفطرة السليمة، وفي كتاب روضة المحبين، يظهر لنا ميل ابن القيم إلى الجدل، وولعه به، بما اعتمده من تفريع وتقسيم للآراء والأقوال، وبما أورده من حجج تجمع بين أدلة العقل، ودقة النقل، وما تؤيده النظرة السليمة، وتقتضيه المصلحة العامة.

فهذا الكتاب كتاب تثقيفي تهذيبي، أكثر منه كتابًا تشريعيًا، لذا نجده يأخذ بالنهج المنطقي في مواضع محددة، وإن كان يعمم القياس الفقهي في أغلب المباحث؛ لأن الكتاب منفتح على جميع الأقوال المبينة لماهية الحب، وهي التي ذكرها المؤلف في سياق يعرض فيه الرأي المؤيد، والرأي المخالف، وفي النهاية يميل إلى الترجيح مستندًا إلى أدلة عقلية أو نقلية، وفيما يلي يمكن إيراد نماذج من الحجج، التي احتج بها، مصنفة حسب الأعم، والأكثر شيوعًا في الكتاب:

١- حجج القياس الفقهي

حجج ابن القيم هنا تنطلق من النصوص الشرعية، وليس من المذاهب الفقهية، فهو يذكر الدليل الشرعي، ويستنبط منه الحكم موضحًا قوته، وضعفه، وما فيه من أسرار وحكم، ومنهجيته في العرض تقوم على الاستقراء الكامل لمذاهب الفقهاء في كل مسألة، وسرد حجة كل مذهب وأدلته، مع دقة ملحوظة في نسبة الأقوال، ومناقشة مستفيضة للأدلة، فهو لا يكتفي بالعرض، إنما يعمد إلى الترجيح، مبينًا صحيح القول من سقيمه.

ولعل من بين الأمثلة التي خلصنا منها إلى هذا الحكم ما أورده في باب "ذكر الشبه التي احتج بها من أباح النظر إلى من لا يحل له الاستمتاع به وأباح عشقه" (ابن القيم،٢٠٠٠، ص ٧٨)، فقد بدأ بعرض حجج من أقوال الطائفة التي أباحت؛ وحجتهم من القرآن، قوله تعالى: (أَوَلَم يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ والأرض وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيءٍ) (سورة الأعراف:١٨٤)، ومن الشبهة أن يعمم النظر هنا على جميع المخلوقات، وقد رد ابن القيم هذه الحجة؛ لأن النظر المقصود في الآية، هو المؤدي إلى معرفة الله عز وجل ومحبته.

ومن أمثلة الحجج من السنة، ما ورد في الحديث: "النظر إلى الوجه المليح عبادة" (ابن القيم، ٢٠٠٠)، وهو عند ابن القيم من الشبه؛ لأنهم استدلوا بهذا القول على جواز تأمل الوجوه الحسنة، حتى لو النظرة محرمة، وقد رد ابن القيم هذه الشبهة، مستندًا إلى أقوال شيخه ابن تيمية، أن هذا القول كذب وافتراء على النبي ﷺ؛ لأن الحديث لم يروه أحد من أهل الحديث بإسناد صحيح ولا ضعيف، بل هو من الموضوعات، وهو مخالف لإجماع المسلمين.

ثم إن ابن القيم يعود ليرد القياس على القاعدة الفقهية، بأدلة عقلية، فيقول: "وأما ما ذكرتم من حال التزام أدنى المفسدتين لدفع أعلاهما، فنحن لا ننكر هذه القاعدة، بل هي من أصح قواعد الشريعة، ولكن الشأن في إدخال هذه الصورة فيها؛ لأن احتمال مفسدة ألم الحب مع غض البصر وعدم تقبيل المحبوب وضمه أقل مفسدة من النظر والتقبيل" (ابن القيم، ٢٠٠٠، ص ٧٨)، وهو يُقر هذا الضرر، لتلافي ضرر أكبر منه، خوفًا من فساد القلب، وفساد الدين، ويدعم رأيه بحجة عقلية أخرى؛ وهي أن الله لم يجعل هلاك العبد في اضطراره إلى الجماع، بحيث إن لم يفعله مات، بخلاف اضطراره إلى الأكل والشرب، ولهذا لم يبح له الوطء الحرام في جميع الأحوال، بينما أباح له تناول الغذاء والشراب المحرم في حال الاضطرار.

٢- حجج القياس المنطقي

وفقا لما تم استقراؤه في الكتاب، فالحجج المنطقية في الخطاب نوعان:

- **حجج القياس المضمر**: وتندرج ضمنه البراهين الصناعية المنطقية، وهي عند أرسطو جسد البرهان والحجة بامتياز، وتقوم على مقدمة كبرى تليها مقدمة صغرى، ثم النتيجة أو الاستنتاج، أي تقوم على الاحتمالات التي تكفي في معالجة الأمور، وترد الحجج المضمرة بصيغ تعبيرية متعددة، من مقارنة، وتشبيه، وتعارض، وتضاد، ومماثلة، إلا أنه في القياس المضمر قد يُكتفى بمقدمة اعتمادًا على وضوحها، كما

March 28, 2021 [Vol. 32(1)]
P-ISSN: 1680-8738; E-ISSN: 2663-547X

أنه قد تُذكر النتيجة، أولا قبل المقدمات أو تُخالف الترتيب الطبيعي للمقدمات (أرنولد، ونيكول، ٢٠٠٧، ص ١٩٦)، ودور المحاجج هنا، الربط بين شيئين على أساس جملة من الخصائص المشتركة بينهما، ومن أمثلة القياس المضمر في كتاب (روضة المحبين)، قوله: "العالم العلوي والسفلي إنما وجِد بالمحبة ولأجلها، وأن حركات الأفلاك والشمس والقمر والنجوم وحركات الملائكة والحيوانات وحركة كل متحرك إنما وجدت بسبب الحب" (ابن القيم، ٢٠٠٠، ص ٤٢)، ولو أردنا توضيح هذه الحجة نجد أنها تتضمن ما يلي:

مقدمة كبرى: كل حركة في العالمين العلوي والسفلي سببها الحب.

مقدمة صغرى: كل حركات الكائنات، إما لجلب منفعة أو دفع مضرة عن المتحرك أو غيره.

نتيجة: حركة كل حي تابعة لمحبته.

وهذه قاعدة كلية من شأنها أن توصل الإنسان إلى تصور أو تصديق، وبناء على هذا الأساس صاغ ابن القيم مبادئ المحبة، على أساس واحد، وهو أن " الوجود كل أصله المحبة" (ابن القيم، ٢٠٠٠، ص ٤٤)؛ لأن المحبة عنده تستند على مبدأ أعم، هو سريان نور الله وقدرته في الكون، ويتولد عن هذا مبدأ التجاذب، فكل ما في الكون بينه تجاذب ومناسبة، كتجاذب الأرواح، وتجاذب الأفلاك، وتجاذب الأصوات، وتجاذب الجمادات.

وفي ضوء هذه الرؤية الكلية، حاول أن يضع تحديدًا جامعًا، لأنواع الحركة الكونية، فقسمها على ثلاثة أقسام، فقال: "الحركات ثلاث: حركة إرادية، وحركة طبيعية، وحركة قسرية" (ابن القيم، ٢٠٠٠، ص ٤٢)، وهدف التحديد هنا إدراك ماهية الحب في ضوء تقييده بالوجود الحسي؛ لأن الماهية المجردة لا يبنى عليها حكم أو وصف فـ " الماهية إذا تقيدت تخصصت" (مفتاح، ٢٠٠١، ص ٢٤)، ويمكن تلخيصها في الشكل رقم (١):

شكل ١

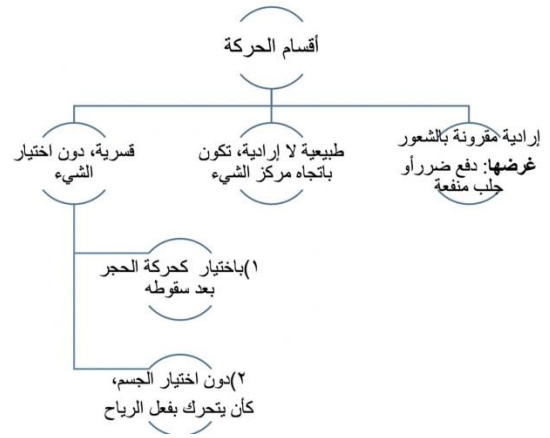

أنواع الحركة الكونية في ضوء الرؤية الكلية للمحبة

هكذا وظف ابن القيم نظرية التحديد المنطقي، بصفاته الذاتية، وصفاته المفارقة، التي هي الأعراض العامة والخاصة، وهذه الأعراض هي التي تشخّص الماهيات وتخصِّصها، وتجعلها عرضة للأوصاف وللتكيف، على أن التحديد لا بد أن يسبقه استقراء كلي أو شبه كلي؛ لتبنى عليه الأقسام المنوعة والمصنفة، لضمان عدم وقوع خطأ في الحدود بين الأشياء، وهذا ما فعله ابن القيم.

- **حجج القياس الحملي (قياس التمثيل)**

ويُسمى الاستقراء الخطابي وهو عكس المضمر، إذ ينطلق من فكرة عامة؛ لتسويغ فكرة خاصة، ومن خلالهما يُقدم حجة تقوم على المشابهة بين حالتين في مقدمتيهما، والمراد استنتاج نهاية إحداهما بالنظر إلى نهاية مماثلهما (لدية، ٢٠١٥، ص ٤٣).

ويقوم التمثيل الخطابي في كتاب (روضة المحبين) على رصد علاقات المماثلة بين المتحابين، وعلى هذا الأساس، نص ابن القيم على أن المحبة إذا كانت "بالمشاكلة ثبتت وتمكنت ولم يزلها إلا مانع أقوى من السبب" (ابن القيم، ٢٠٠٠، ص ٥١)، والمقصود أن المحبة تستدعي مشاكلة وتناسبًا بين الأرواح، وعلى هذا الأساس وزع التناسب على نوعين:

الأول: ***التناسب الأصلي:*** تشاكل النفوس وتمازجها، وشوق كل نفس إلى مشاكلها في أصل الخلقة، فينجذب كل منهما للآخر بالطبع، كاتفاق الأخلاق، وتشاكل الأرواح، وهو انجذاب يقع بخاصية لا تُعلل ولا يُعرف سببها، كانجذاب الحديد إلى الحجر أو المغناطيس. وهنا تتشكل قضية حملية عمادها: أن الحديد والمغناطيس موضوع، وتناسب الروح والروح محمول، والنتيجة أن حصول التشاكل أساس التجاذب بين الشيئين:

نتيجة: حصول التشاكل أساس للتجاذب بين الشيئين.

مقدمة: انجذاب الحديد للمغناطيس بالطبع.

مقدمة: امتزاج الروح بالروح لما بينهما من تناسب، كما حدث في حديث عائشة رضي الله عنها: إن امرأة كانت تدخل على قريش فتضحكهم، فقدمت المدينة، فنزلت على امرأة تضحك الناس، فقال النبي ﷺ: على من نزلت فلانة؟ فقالت: على فلانة المضحكة، فقال: "الأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف، وما تخالف منها اختلف"، (ابن القيم، ٢٠٠٠، ص ٥٣)، والمقصود أن المحبة تستدعي مشاكلة، ومماثلة بين الطرفين المتحابين.

وبذلك يحدد ابن القيم مبدأ الحياة الشامل، فيجعل كل من وما في الوجود بينهما تجاذب ودفع ومنافرة؛ المناسبة جامعة وجاذبة، وترابط مكونات العالم يجعل مبدأ الانجذاب ساريًا في كل الموجودات (ابن القيم، ٢٠١٩، ص ١٨)، كتجاذب الأرواح، والأفلاك، والجمادات...وغيرها، ومن ثم يحصل أن ما يتأثر به مخلوق يتأثر به شبيهه، لكن درجة التأثير تختلف حسب الاستعداد ومقدار التناسب.

وفي سبيل ترسيخ هذه القاعدة، يستدل بالعديد من الأقوال مثل: ما قيل لبقراط أن رجلا من أهل النقص يحبه فاغتم لذلك، وقال: ما أحبني إلا وقد وافقته في بعض أخلاقه، ولا ريب أن وقوع هذا القدر بين الأرواح أعظم من وقوعه بين الجمادات، وهنا يستدل ابن القيم (٢٠٠٠، ص ٥٠)، بقول الشاعر:

محاسنها هَيُولي كل حســـن ومغناطيس أفئدة الرجال

March 28, 2021 [Vol. 32(1)]
P-ISSN: 1680-8738; E-ISSN: 2663-547X

وهذا مفاده أن الحب لا يلزم ولا يشترط الجمال، ولا يمنع وقوعه في حال عدمه، وإنما هو تشاكل الطباع، وتقارب الصفات، وإذا كان الحب بالمشاكلة، ثبت وتمكن من النفس، فلا يزول، إلا مع وجود مانع أقوى من السبب، وهذه خلاصة ما أكده ابن القيم في النوع الأول، أي التناسب الأصلي.

الثاني: ***(التناسب العارض)،*** فيقع بسبب المجاورة أو الاشتراك في أمر من الأمور، فمن ناسب قصدك قصده، حصل التوافق بين روحك وروحه، وإذا اختلف القصد زال التوافق.

النتيجة (الحد الأكبر): المناسبة علة الضم شرْعًا وقدرًا.

الحد الأوسط: حصول التوافق بين الروح والروح، لوجود تناسب عارض.

الحد الأصغر: من ناسب قصدك قصده، حصل التوافق بينك وبينه. والقضية على هذه الوضعية (موجبة)، ويقوي حجتها مقابلتها بعكسها:

الحد الأوسط: إذا كانت المشاكلة عرضية، فالتوافق يزول بزوال المصلحة.

الحد الأكبر: إذا اختلف القصد زال التوافق.

الحد الأصغر: إذا كانت المحبة، لغرض من الأغراض تزول لانقضائه، وتضمحل.

نتيجة: "من أحبك لأمر ولى عند انقضائه لم يكن لمحبته بقاء" (ابن القيم، ٢٠٠٠، ص ٥٥).

- دوام الحب مع دوام العارض (موجبة)
- زوال الحب مع زوال العارض (عكسها)

وخلاصة ما توصلت إليه الدراسة في هذا السياق، أن المحبة مبدأ أساسي من مبادئ فلسفة انتظام الكون، وهي سبب قريب وبعيد للتناكح والزواج، وقد أفاض ابن القيم في الحديث عن هذا المبدأ، وأفرد بعده فصلًا تاليًا في دواعي المحبة ومتعلقاتها، بيّن فيه أن المحبة تقوى بثلاثة أمور: "وصف المحبوب وجماله، وشعور المحب به، والمناسبة، وهي العلاقة والملاءمة التي بين المحب والمحبوب" (ابن القيم، ٢٠٠٠، ص ٤٩)، وأما ضعف المحبة ونقصها؛ فبمقدار نقص هذه العناصر الثلاثة.

ثالثًا: الأبعاد التواصلية للخطاب في روضة المحبين (المناظرة بين القلب والعين نموذجًا)

يحاول هذا المبحث تحليل الخطاب من زاوية تواصلية، إذ إن الغاية القصوى للحجاج في جميع أحواله، تحقيق التواصل الفعال، عن طريق توفير مضمون أخلاقي ومعرفي، وفي إطار ما تم تقديمه في المباحث السابقة، يمكن تسليط الضوء على الحجج المتمثلة في المظهرين العاطفي والعقلي، وقد صنفت الدراسة الحجج في روضة المحبين على ثلاثة أضرب:

الأول: يقوم على إثارة العاطفة من خلال حجج الباتوس والإتوس.

الثاني: يقوم على البرهنة والاستدلال في إطار الحجاج العقلي بالمنطق.

الثالث: يجمع بين المسلكين العقلي والعاطفي، حين يركن إلى الحوار القائم على الإمتاع وقوة التأثير، كما وقع في باب مناظرة (القلب والعين)، فاللغة تتوسط؛ لإقامة صرح الحوار والمكاشفة مع النفس، ومن ثم يمكن مقاربة الحجاج، بوصفه حوارًا أخلاقيًا، في سياق اجتماعي، يرتقي بالحجاج عن الجدل المباشر والقوالب العقلية المنطقية، إلى سياق استعاري افتراضي، ليقيم حوارًا داخليًا بين الحس والشعور، وهذه أدوات تملك الحب في القلب، وبهذا تظهر قيمة المناظرة، لأنها مدعومة بحجج، لعقد المصالحة بين الطرفين، والوصول إلى حل بافتراض طرف ثالث حكم بينهما، وهو الكبد، وأبطال المناظرة لهم دلائل اعتبارية، فالعين هي رسول الحب، والقلب هو موطنه، وتتدخل الكبد للفصل في القضية؛ لأنها عين الحقيقة ولبها.

ولعل أول سمة تبرز في هذه المناظرة، هي البناء الحواري، فالمدعي هو القلب، وهو العارض، الذي يطالب العين بالاستقامة؛ لأن صلاح الجوارح يطفئ ثورة القلب والشعور، وبذلك تكون العين هي المدعى عليه، أي المعترض، وأما الكبد؛ فهي طرف ثالث؛ لأن الطرفين المتحاورين لا يتوخى منهما الوصول إلى الحق والصواب، وهذا غالبًا ما يحدث في المناظرة لاحتيال أحد الطرفين على صاحبه وجره إلى الوقوع في الخطأ؛ لينال الظفر، ولكن في سياق هذا النص كان هذا المسلك محجوبًا، لظهور الكبد طرف ثالث، يفصل بين الطرفين المتنازعين، ولتسوية النزاع بين الطرفين تم توظيف آليات التواصل الحجاجي بعدة سبل، يمكن إجمالها فيما يلي:

١- **التجسيد:** وهو مما يساند بالحجج المصطنعة ويعزز القصد، فعن طريق القوة الكامنة في الاستعارة القائمة على التشخيص، ويقويها القياس المضمر، وهو الأبلغ والأكثر إثارة، يُضاف إلى ذلك ما يعززه الشاهد الديني، والأدبي، والمثل التاريخي، وهو الأكثر استخدامًا في أغلب الأحوال لقدرته على إثارة التصديق، ولاعتماده على الحقيقة.

٢- **الحوار:** والملاحظ أن المناظرة حين قامت على الحوار المباشر جمعت ضمير الخطاب (أنتِ وأنتَ وكاف الخطاب لكل منهما، مثال قوله:

القلب: أنتِ التي سقتني إلى موارد الهلكات...

العين: أنتَ الملك المطاع، ونحن الجنود والأتباع

الكبد: "فلما سمعت الكبد تحاورهما الكلام، وتناولهما الخصام، قالت: أنتما على هلاكي تساعدتما، وعلى قتلي تعاونتما..." (ابن القيم، ٢٠٠٠، ص ٧٧).

٣- **المماثلة:** تعمد الكبد إلى المماثلة في قولها: "مثلكما مثل مُقعد بصير، وأعمى يمشي، دخلا بستانًا، فحمل الأعمى المقعد، وظل الأعمى يمشي في البستان، والمقعد يرشده ويقطف الثمار، وفي نهاية المشهد، تسأل الكبد سؤالا تقريرًا؟ فعلى من تكون العقوبة؟ فيقول القلب: عليهما، وترد الكبد: فكذلك أنتما (ابن القيم، ٢٠٠٠، ص ٧٧).

٤- **التضاد:** المتناظران الأساسيان: القلب والعين بينهما تناقض جوهري؛ لأن القلب قوامه العقل والابتعاد عن الهوى والزيغ، وأما العين؛ فهي رسول الشهوة والانحراف والميل؛ لذا فإن دلالة المتناظرين تسهم في بناء الخطاب الحجاجي، دون انتصار لأحد الرأيين، إلا أن ما يحملانه من دلالات

March 28, 2021 [Vol. 32(1)]
P-ISSN: 1680-8738; E-ISSN: 2663-547X

تحمل القارئ على تبني الدلالات الإيجابية التي تتفق مع الشريعة الإسلامية.

٥- **التعميم:** وذلك بالاعتماد على المرجعية الدينية، في الحجج التي ساقتها الكبد، لتؤكد على أهمية التوازن بين العقل والعاطفة، وبصلاح القلب يصلح سائر الجسد،

٦- **السياق النصي للمناظر**: دارت أحداث هذه المناظرة في الباطن، وغاصت في أعماق النفس البشرية، مدركة للطبيعة البشرية التي فطر عليها الإنسان، لأن عمادها الروح والجسد وبهما ولهما كان الخصام، ولهذا تراوحت البراهين بين الشعري والعقلي، ليجد كل من الطرفين ما يسنده ويؤازره.

ولهذا قالت الكبد كلمة الفصل في هذا الخصام: "أنتما في البلية شريكا عنان، كما أنكما في اللذة والمسرة فرسا رهان، فالعين تلتذّ، والقلب يتمنى ويشتهي" (ابن القيم، ٢٠٠٠م، ص ٧٦)، وتلك حكمة تلخصها مقولة الشاعر، التي استند إليها ابن القيم (٢٠٠٠، ص ٧٧):

فو الله ما أدري أنفسي ألومها على الحب أم عيني المشومة أم قلبي

ولأن ابن القيم كان يعلم وقع الشواهد الدينية في نفس مخاطبه، كونه رجلا متدينًا وافر العلم والفقه، نجده يختار شواهده بكل عناية وتبصر مما يقوي البناء الحجاجي، فيُوقع التصديق ويحقق المقاصد الإقناعية القائمة على التربية والتهذيب، وما ترسخ من قيم وأخلاق المجتمع المسلم المحافظ.

وابن القيم يستغل التاريخ ويعتمد على ما روي في الأثر، لاستخلاص العِبر من أحداثه، ليقيم علاقات بين الماضي والحاضر، لكنه في الأصل يعالج أحداثًا موجهة للسلوك السوي، ومؤثرة فيه عن طريق حضورها في الذاكرة الجماعية للمتلقين، وهذا ما يحقق استدامة التداول، التي اعتمد البحث عليها في أهميته، وعلى أساسها، بُرر اختياره لمدونة الدراسة.

ولكي تكسب الإحالة التاريخية قدرتها الحجاجية، يجب أن تكون مشهورة، أي متصلة بالوعي الجمعي، حتى يتمكن الباحث من الربط المؤثر بين الماضي والحاضر، على سبيل الاستدلال، للترغيب والترهيب، ولإحداث التغيير المطلوب في الوجدان وفي السلوك.

كما أن الفاعلية الحجاجية ارتفعت بسبب الصور الحكمية في المناظرة بوسائل التخييل، وهذه الحجج جميعها مكن من إغراء المتلقي للإقبال على موضوع الخطاب، لأن الاستمالة والإقناع يتطلبان المزاوجة بين المضمون العقلي للحجة وصورها البيانية، مما ساعد على تمرير رسالة الكاتب.

٤- الخاتمة

جاءت فكرة هذا البحث، للمساهمة في إجلاء الجانب المشرق من فلسفة الحب في القرنين السابع والثامن الهجريين، وإثبات صلاحية هذا الخطاب للتداول؛ فهو مدد للثقافة العربية المعاصرة، وقد وقع الاختيار على كتاب (روضة المحبين)، لتوفره على مضامين مقنعة، ورفيعة القيمة، تهذب السلوك، وتوجه الشعور، هذا ما تؤكده جُلّ الأحكام النقدية من لدن النقاد القدامى والمحدثين (الحجاجي، ١٩٨٨، ص ٢٩٦)، لأن الكتاب أفصح عن جوانب مهمة في مشاعر الحب، تتسم بالاستدامة وتظل مرجعًا في مجالها، مما أهله لمقاربة حجاجية، كشفت عن سر ديمومة تداوله، المقترنة بجمالية الأسلوب، وتقنيات التعبير المبني على حجج متماسكة وملاءمة.

وانطلاقًا من المعطيات اللغوية والاتصالية للتداول، تمّ استقراء وسائل الحجاج المنطقية والعاطفية، مع التركيز على ما يرتبط بالوظائف الاتصالية (مرسل – مستقبل- رسالة وشفرة)، وفي ضوء هذه المكونات الاتصالية، تمت معالجة حجج الخطاب في كتاب (روضة المحبين ونزهة المشتاقين)، ليعاد شرحه وتأويله في ضوء الآليات الأساسية المكونة للخطاب الحجاجي والمتمثلة في كل من: الموضوع، وطريقة البناء، والوظيفة. وبناء عليه يمكن تحديد الملامح الأساسية للمكون الحجاجي للنص، على النحو الآتي:

- الكتابة في فلسفة الحب في (روضة المحبين)، هدفها السعي إلى ترسيخ قيم إسلامية أصيلة، ومحددة عن الذات والعالم المحيط بها، إذ أهم ما يطبع المجتمع المسلم، هو حالة التوسط أو التوازن بين متطلبات الروح، ومتطلبات الجسد، ويُستنتج من هذا أن المؤلف اتخذ من هذا الموضوع موجهًا تربويًا، له قيمته التنظيرية، فثمة قضية كبرى تثبت وسطية الدين الإسلامي وصلاحيته لكل زمان ومكان، وتستند الحجج في هذا السياق إلى معيار روحاني، يخلص إلى نتيجة مفادها أن الحب ظاهرة كونية، وهذا هو التفسير الأفضل المحفز لعبادة الله.
- هدف الإنسان الأسمى يتحقق بالسعادة والفضيلة، وتوفر ذلك يكون عبر فكرة مؤداها أن الأبنية المتماسكة تعبر عن رؤية متزنة للعالم، تظهر في عصر معين؛ للتعبير عن موقف معتدل لبعض الجماعات البشرية، وقد اكتسب الخطاب التراثي لموضوع الحب في كتاب ابن القيم أهمية استثنائية، لأنه رسخ الوعي بالذات، وأنتج خطابًا إنسانيًا متكاملا، يوازن بين الروح والجسد.
- لا غضاضة في توظيف ابن القيم الحجاج الأرسطي، وكان القصد إيجاد الحجج والبراهين، التي تظهر المرسل صاحب حق، وتمكن لدعوته أحسن تمكين، والقياس المنطقي عمدة دراسات كثيرة تنتمي إلى حقول مختلفة، كلها تشترك في استلهام أفكار المعلم الأول، التي تسند إلى الكلمة قوة تجعلها قادرة على التأثير والإقناع، وهذا البحث أسهم في بعث عناصر الخطابة في ثوبها الأرسطي، وهو ما يتصل بنوع من الحجج نعتها أرسطو بالحجج الصناعية، وقد أوكل صناعتها للخطيب، وأرجع مادتها إلى القول، فمنه تشتق وإليه يكون الاستناد في بنائها.
- الحجاج في هذا البحث محصلة حجج ثلاث، تستهدف عقل الإنسان وانفعاله، بينما البحث في مسالك الإقناع حديثًا، يكاد ينغلق على الحجج اللغوية المنطقية، التي تستمد قدرتها على الإقناع من قدرة الخطيب على الاستدلال، مع أن أرسطو نبه إلى أهمية استمالة الجمهور، وهذا ما نجده في خطاب ابن القيم، الذي يظهر في مظهر الفقيه العالم بأحوال النفس، والمرتكز على حجاجية التصديق، بأسلوب ينزع إلى المراوحة بين الإمتاع والإقناع، والمزاوجة بين مخاطبة النفس ومخاطبة العقل.

لقد وجدت الدراسة في خطاب (روضة المحبين ونزهة المشتاقين) مشروع قراءة هادفة، يسعى إلى مقاربة القيم

الإسلامية في مواطن العشق، وهو لا يقل حجاجية عن خطاب ابن القيم الفقيه الجاد، والنحوي المجادل، ومن هنا لا يكون سببًا لاستنكار توظيف ابن القيم للمنطق، فالمنطق أداة ذهنية محضة، فهو "نحو العقول، كما النحو للغة"، والعارف في المنطق قد يستعمله للخير وقد يستعمله للشر، فهو كالسيف يأخذه شخص يجاهد به في سبيل الله، وآخر يقطع به الطريق.

أما الفلسفة الممنوعة لدى الفقهاء، فهي التي تخوض في مسائل الميتافيزيقا من مثل قدم العالم، وغيرها من المسائل، التي كانت موضع خلاف الفقهاء مع الفلاسفة، ومن هنا لا نجد أية غرابة فيما نقله ابن القيم، من آراء لأرسطو وأفلاطون وغيرهما من الفلاسفة، وأيضًا لا غرابة في استعانة ابن القيم بأدوات الحجاج المنطقي في هذا السياق، طالما أنه لا يخوض فيما يتعارض مع العقل السليم، والفطرة السوية، ومبادئ الدين الحنيف، فالمنطق آلة ذهنية يستخدمها الفيلسوف، وكل ناظر كـ (المتكلم، والنحوي، والفقيه والأصولي)، وغيرهم من أصحاب العلوم الطبيعية "، (ابن سينا، ٢٠٠٨، ص ٢٧).

المصادر

ابن القيم، ش، م. (٢٠١٩). *مفتاح السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة*. مكة المكرمة: دار عالم الفوائد.

..... (٢٠٠٠). *روضة المحبين ونزهة المشتاقين*. بيروت: المكتبة العصرية.

..... (٢٠٠١). *الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي*. الرياض: مكتبة ابن تيمية.

ابن حزم، ع. (٢٠١٣). *طوق الحمامة وظل الغمامة في الألفة والألاف*. لبنان: دار ابن حزم.

ابن سينا، ح. ع.(٢٠٠٨). *كتاب المنطق*. القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية.

ابن منظور، م. م. (٢٠٠٣). لسان العرب، القاهرة: دار الحديث.

أرنولد، أ.، ونيكول، ب. (٢٠٠٧). *المنطق أو فن توجيه الفكر*. (ترجمة ع. قنيتي) بيروت: المركز الثقافي العربي.

الأصفهاني، م. د. (١٩٨٥). *الزهرة الزرقاء*: مكتبة المنار.

الحباشة، ص. (٢٠٠٨). *التداولية والحجاج: مدخل ونصوص، كتاب الحجاج مفهوماته ومجالاته*. إربد: عالم الكتب.

الحجاجي، ح. ع. (١٩٨٨). *الفكر التربوي عند ابن القيم*. جدة: دار حافظ.

الدريدي، س. (٢٠٠٨). *الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة: بنيته وأساليبه*. عمان: دار الكتاب العربي.

الرحموني، س.(٢٠١٣). *الحجاج في بنية كتاب "طوق الحمامة في الألفة والألاف"*. تونس: دار سحر.

الرقبي، ر.(٢٠١٨). *البلاغة والحجاج: بحث في تداولية الخطاب*. المغرب: أفريقيا الشرق.

الزماني، ك.(٢٠١٩). *الحجاج بالإيتوس في الخطاب السياسي*. إربد: عالم الكتب الحديثة.

السرتي، ز.(٢٠١٣). *الحجاج في الخطاب السياسي المعاصر*. إربد: عالم الكتب الحديثة.

العبد، م. (٢٠١٠). *النص الحجاجي العربي: دراسة في وسائل الإقناع (كتاب الحجاج مفهوماته ومجالاته)*. ط.١. مج.٢. إربد: عالم الكتب.

الفيروز آبادي. م (١٩٩٥). *القاموس المحيط*. بيروت: دار الفكر.

الولي، م. (٢٠٠٥) *الاستعارة في محطات يونانية وعربية وغربية*. الرباط: دار الأمان.

بارت، ر. (٢٠٠٩). *الكتابة في درجة الصفر* (ترجمة م. ن. خشفة). دمشق: دار المحبة.

دوبوجراند، ر.(١٩٩٨). *النص والخطاب والإجراء* (ترجمة حسان). القاهرة: عالم الكتب.

صمود، ح.ح. (د. ت). *مقدمة في الخلفية النظرية للمصطلح*، كتاب أبحاث نظريات فريق البلاغة والحجاج. تونس: جامعة تونس.

صولة، ع. (٢٠١٠). *البلاغة العربية في ضوء البلاغة الجديدة أو الحجاج* (كتاب *أبحاث الحجاج: مفهومه ومجالاته*). ط.١. مج١. الأردن: عالم الكتاب.

عبد الرحمن، ط. (١٩٩٨). *اللسان والميزان أو التكوثر العقلي*. بيروت: المركز الثقافي العربي.

عبد الرحمن، ط. (٢٠٠٠). *في أصول الحوار وتجديد الكلام*. بيروت: المركز الثقافي العربي.

كروم، أ. (٢٠٠٠). *الاستدلال في معاني الحروف دراسة في اللغة والأصول*. دجنبر: المطبعة والوراقة الوطنية.

لدية، ع. (٢٠١٥). *نظرية الحجاج: تطبيق على نثر ابن زيدون*. إربد: عالم الكتب الحديثة.

مفتاح، م. (٢٠٠١). *التلقي والتأويل: مقاربة نسقية*. بيروت: المركز الثقافي العربي.

مفتاح، م. (٢٠٠٥). *رؤيا التماثل*. بيروت: المركز الثقافي العربي.

References

Abdulrahman, T. (1998). *Tongue and balance or mental Takawthor*. Beirut: The Arab Cultural Center.

Abdulrahman, T. (2000). *On the fundamentals of dialogue and the renewal of discourse*. Beirut: The Arab Cultural Center.

Al-Abed, M. (2010). *The Arabic argumentative text: A study in the means of persuasion. Al-Hajaj book, its concepts nd scopes*. Jordan: Al-Kutub World.

Al-Asfahani, M. D. (1985). *Al-zahra' al-Zarqaa*. 4th Edition. Jordan: Al-Manar Bookshop.

Al-Deraidi, S. (2008). *Al-Hijaj in the old Arabic poetry from pre-Islamic era to the 2nd hijra century: Its structures and*

Hajaji, H.A. (1988). *The educational thinking of Ibn Al-Qayyem*. Jeddah: Hafith Publishing House.

Ibn Al-Qayyem, S. M. (2000). *Rowdatt al-muhibbeen wa nuzhat al-mushtaqeen* (*Garden of Lovers and Promenade of Longing People)*. Beirut: Al-Assriya Bookshop.

Ibn Al-Qayyem, S. M. (2019). *Meftah al-saadah and manshoor wilayat al-elm and al-eradah* (A *key to happiness and a statement on the authority of knowledge and will*). Macca: Aalam Al-Fawaed Publishing House.

Ibn Al-Qayyem,S. M.(2001). *Al-jawab al-kafi leman saal aan al-dawaa al-shafi* (*The sufficient answer for those asking about the healing remedy*). Riyadh: Ibn Taymiyah Bookshop.

Ibn Hazm, A.A. (2013). *Tawq al-hamamah and thil al-ghamama fi al-olfah wa al-allaf*. Lebanon: Ibn Hazm Publishing House.

Ibn Manthoor, M. M. (2003). *Lessan al-arab* (The *tongue of Arabs*). Cairo: Al-Hadith Publishing House.

Karoom, A. (2000). *Deduction in the meanings of letters*: A *study in language and fundamentals*. Dejanbar: National Printer.

Ladiyah, A. (2015). *The theory of argumentativeness: An application to the prose by Ibn Khaldoon*. Irbid. Al-Kutub Al-Haditha World.

Meftah, M. (2001). *Reception and interpretation: A coordinating approach*. Beirut: The Arab Cultural Center.

Meftah, M. (2005). *A vision of symmetry*. Beirut: The Arab Cultural Center.

Samood, H. (n.d.). *An introduction to the theoretical background of terminology: A research theories of the team of rhetoric and argumentativeness*.Tunisia: University of Tunis.

methods. Amman: Al-Kitab Al-Arabi Publishing House.

Al-Fairooz, A. M. (1995). *Al-Qamoos Al-Muheet* (The Comprehensive Dictionary). Beirut: Al-Fikir Publishing House.

Al-Habbasha, S. (2008). *Pragmatism and argumentativeness: An introduction and texts: Al-Hajaj book, its concepts and scopes*. 1st Edition. Irbid: Al-Kutub World.

Al-Rahmooni, S. (2013). *Argumentativeness in the structure of the book* '*Tawq Al-Hamamah and fi Al-Olfah wa Al-Allaf*'.Tunisia: Sahar Publishing House.

Al-Rogbi, R. (2018). *Rhetoric and argumentativeness: A research on the pragmatism of a discourse*. Morocco: Afrikia Al-Sharq.

Al-Solah, A. (2010). *The Arabic rhetoric in light of the neo-rhetoric (or argumentativeness): A research on argumentativeness, its concept and scopes*. Jordan: Al-Kutub World.

Al-Surti, Z. (2013). *Argumentativeness in the contemporary political discourse*. Irbid: Al-Kutub Al-Haditha World.

Al-Walie, M. (2005). *Metaphors in Greek, Arab, and the Western stations*. Rubat: Al-Aman Publishing House.

Al-Zamani, K. (2019). *Argumentativeness in the political discourse*. Irbid: Al-Kutub Al-Haditha World.

Arnold, A. & Nicole, P. (2007). *Logic or the art of guiding thinking* (Translated by Abdulqadir Qanniti). Beirut: The Arab Cultural Center.

Avicenna, H. A (2008). *The book of logic*. Cairo: Al-Thaqafah Al-Deeniya Bookshop.

Bart, R. (2009). *Writing at zero degree*. (Translated by M. N. Kashafh). Damascus. Al-Mahabbah Publishing House.

De Breaugrand, R. (1998). *The text, discourse and action*.(Translated by T., Hassan). Cairo: Al-Kutub World.